

مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن

الدكتور
عبد الجواد خلف

دار البيان للطباعة والنشر
٢٠٠٣م

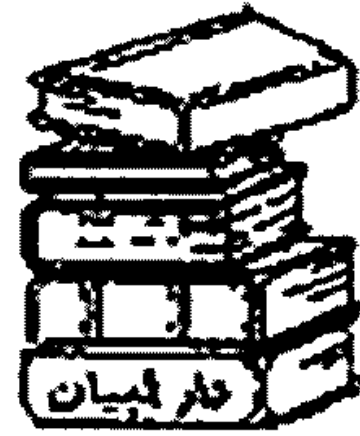
الدكتور
عبد الجواد خلف

مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن

دار البسيان
القاهرة

مدخل إلى
التفسير وعلوم القرآن

دار البيان



للطباعة
والنشر
والتوزيع

٧ عمارات الجبل الأخضر

بجوار نادي السكة الحديد

ووزارة المالية الجديدة

مدينة نصر

تليفاكس: ٤٨٢٢٤٨٧

ت- ٤٨٣٤٣٢٧

رقم الإيداع

١٩٩٩/١١٢٠٥ م

الترقيم الدولي

961-700-33-8

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه
وعلى أصحابه ومن والاه.

وبعد : فإن أكثر ما قامت عليه الحضارات البشرية كلها مرده إلى التعاليم
الإلهية التي جاءت بها النبوات الكبرى منذ العصور الأولى للإنسان.

وقد ختمت هذه النبوات ، وتبلورت مفاهيمها ، ووضحت صورتها تمام
الوضوح ببعثة محمد ﷺ بالإسلام .

وقد كان لبعثته ﷺ فاتحة عهد جديد لظهور أمة جديدة ختمت بها الأمم ،
أرست قواعدها وأركانها الأساسية ، وأقامت جذورها ، على « الوحي الإلهي »
الذي تبلور في علوم القرآن ، وعلوم السنة .

وهذا الكتاب محاولة « لترتيب المفاهيم الفكرية للإنسان » حول جذور
الحضارة الإسلامية خاصة فيما يتعلق بالمنبع الأصلي لهذه الجذور ، وهو « الوحي
الإلهي » ، الذي لم تكن الحضارة الإسلامية بدعاً من الأمم في الاعتماد عليه ، وإنما
تفردت عن سائر الأمم المعتمدة على هذا المنبع في تنظيمه ، وتنسيقه ، وإعداده
ليكون منهج حياة يستوعب سائر الأمم مكاناً وزماناً .

و « الوحي الإلهي » في مفهوم الحضارة الإسلامية هو القرآن والسنة معاً ، لا
ينفكان ولا ينفصلان عن « مفهوم الوحي » . وإنما ينفكان وينفصلان في ضوابط
الحكم على جزئيات المسائل الفرعية بين ما هو قطعي في دلالة على الحكم ، أو ما
هو ظني فيها ، وهذا ما توصف به السنة كما يوصف به القرآن ، وذلك عند من
يفهم أن منبع هذه الجذور واحد .

أما من لا يستقيم له هذا الفهم فينكر السنة أو شيئاً منها ، فليس له من فهم
الحضارة الإسلامية نصيب كبير ، وعِلته في سقم فهمه ، ولا يفت في عضد جذر

من جذور هذه الحضارة قليلا أو كثيرا.

وهذا الكتاب أيضا ، وإن ألقى ضوءاً سريعاً على السنّة النبوية المشرفة، ومنزلتها، وعلومها الجليلة إلا أنه معنيٌّ بالدرجة الأولى في الأخذ بيد القارئ إلى التعرف على علوم القرآن الكريم، وأولها «علم علوم القرآن» وهو علم التفسير.

فلا غرابة إذاً أن يكون عنوان هذا الكتاب : «مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن» ليعرف القارئ الكريم أن أول ما نشأ من علوم القرآن في أحضان النبوة، وتحت رعايتها هو «علم التفسير» الذي احتاج فيما بعد إلى ابتكار سائر علوم القرآن ليشُدَّ من أزره على خدمة القرآن ، والكشف عن مراد الله تعالى، وبيان تشريعه، وأحكامه، وآدابه.

وكذلك ليرتب كلُّ مُتَمِّمٍ إلى حضارة الإسلام ذهنه وفكره، على أن القرآن والسنة بعلومهما، وفنونهما هما منابع تلك الحضارة ، وأن البعد عن هذه المنابع بعد عن الأمة الإسلامية والإنسلاخ عنها إلى حضارات أخرى ليست محل عناية.

وقد جاء هذا المدخل في قسمين رئيسين :

تناولت في القسم الأول : الكلام حول مجموعة من المباحث اهتمت بالحديث عن جذور الحضارة الإسلامية .

وتناولت في القسم الثاني : مجموعة من الأبواب المختارة في علم التفسير، وبعض علوم القرآن المتعلقة به .

وتركت تفصيل ذكر مباحث القسمين إلى الفهرس العام .

والله أسأل أن ينفع به من صلحت نيته للإستفاده منه، وأن يأجرنا جميعاً بصوالح نوايانا إنه نعم المغيث .

د / عبد الجواد خلف

كراتشي في : ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

القاهرة في : ١٤١٠ هـ - ١٩٩٦ م

القسم الأول
جذور الحضارة الإسلامية

القسم الأول

جذور الحضارة الإسلامية

المبحث الأول: تمهيد

كل أمة من أمم الأرض تخضع في « حضارتها » بمفهومها الشامل، من ثقافة، وتربية، وتعليم، وزراعة، وصناعة، وعادات، وتقاليدها، وعمران، إلى « دينها » الذي تدين به .

فأمة الهند مثلا تبنى كل حياتها على الديانة « الهندوكية » وتوابعها من البوذية، والجينية وتستمد كل ثقافاتهما من هذه العقائد الدينية بما فيها أشكال الأبنية والعمارات، والزواج، والطلاق، وسائر شئون الحياة حتى التعامل مع جثث الموتى.

وكذلك أمة اليهود والنصارى يستمدان حضارتهما من ديانتيهما.

والأمة التي لا تدين بدين، ولا تؤمن بإله، أمة - أيضا - تستمد حضارتها من الدين . ودين مثل هذه الأمة: « أنه لا دين لها ».

ومنذ أدرك الإنسان نفسه على سطح هذا الكوكب الذي نعيش فيه، وهو يبحث بفطرته وغريزته عن سر وجوده في هذا الكون، بل وعن الكون المحيط به: من أوجده؟ وما غاية هذا الوجود؟ .

ولم يزل الإنسان في هذا البحث منذ عهد سحيق يريد أن يحدد مركزه ومركز الكون المحيط به وهو يرى السماء والأرض، والسهول والجبال، ويرى الرعد القاصف والبرق الخاطف والعواصف الشديدة، ويرى الأعاصير التي تقتلع الأشجار، والأمطار الغزيرة التي تجعله يبحث عن مأوى يحميه منها .

ثم يرى الليل، والنهار، والشمس، والقمر، وتأثير كل واحد منها على حياته، وحياة الكائنات الحية فيما حوله من حيوانات، وطيور.

ثم يتأمل الحياة فيمن يولد من حوله .. ويتفكر في الموت في من يذهب عنه
ليدفن في باطن الأرض .. ما السر وراء كل ذلك ؟ !

و هاهي الآثار الأدبية للإنسان المصري القديم تحدثنا عن هذه التأملات الفكرية
المتقدمة في تلك المنظومة الرائعة للوزير « حُتب » الكاهن المصري الفرعوني ،
والتي سجلها في « كتاب الموتى » حيث يقول :

« إن الموتى الذين ذهبوا لم يعد واحد منهم من « الأبدية » ليحدثنا بما جرى
لهم حتى يسعد قلوبنا .. فدع عقلك ينسى هذا ، واتبع رغبات قلبك ما دمت
حيًا ، وتمتع بأطيب الحياة قبل أن يأتي « يوم الآخرة » .. فالمرء لا يأخذ متاعه ،
والذاهب لا يعود . »

ولا أحسب أن ذلك الإنسان القديم .. قدم التاريخ .. وهو يقدم لنا هذا الفكر
المتواضع كان يدرك - وهو يفعل هذا - أنه إنما ينمي غريزة كائنة في نفسه ، ألا
وهي غريزة التدين !

فكما أن علماء الاجتماع توصلوا إلى أن الإنسان « مدني بطبعه » فإن علماء
الأديان يحق لهم أن يقولوا أيضا : « إن الإنسان متدين بطبعه » .. !

وغريزة التدين شأنها شأن سائر الغرائز التي أودعها الله في الإنسان كغريزة
الجوع ، وغريزة العطش ، وغريزة التمدن ، وغريزة حب التملك ، وغيرها من
الغرائز التي تطالب الإنسان أن يسعى إلى إشباعها ، وسد مطالبها واحتياجاتها .

غريزة الجوع : تدفعه إلى العمل ، والسعي في الأرض للحصول على الرزق
الذي يهيئ له الطعام ليسد به غائلة جوعه ، ويشبع به هذه الغريزة .

وغريزة العطش : تدفعه إلى البحث عن الماء ، وتنمية موارده وتخزينه ،
واستعماله عند الضرورة والحاجة .

وغريزة التمدن : جعلته يشعر بالحاجة إلى أخيه من بني الإنسان ، وأنه لا

يمكن أن يعيش بمفرده منعزلاً عن الآخرين .

وغريزة حب التملك : دفعته إلى اقتناء الحاجات الضرورية ، وحفظها ، والدفاع عنها ضد من يحاول أن ينتزعها من يده .

وكذلك « الدين » غريزة دفعته إلى أن ينظر إلى نفسه ، من أين أتى ..؟ وإلى أين يذهب ..؟

وأن ينظر إلى الكون من حوله .. ما مصيره ؟ وما مصير العالم كله من بعده؟ وسرعان ما اكتشف بعقله المجرد .. أن هذا الوجود كله لا بد وأن يكون وراءه مُوجدٌ، وأن هذا الكون كله لا بد له من صانع، وقد تبين له أن الصانع المُوجد قوةٌ جبارةٌ تقهر ولا تُقهر ، تُجير ولا يُجار عليها .

عرفها أيضاً بعقله، وفطرته ، وغريزته .. واستصرخها، وطلب نجدتها عندما أَلَمَّتْ به أمواج البحار توشك أن تُغرقه ، أو عندما عصفت به الرياح توشك أن تُهلكه .. فأغاثته ونجدته .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ (١)

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ (٢)

وانتشر الإنسان على الأرض ليُكوّن الجماعات ، وانتشرت الجماعات لتُكوّن الشعوب ، والقبائل ، والأمم ، وعُرِفَت كل أمة بحضارتها ، ولونها وجنسها، ودينها .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (٣)

ومع انتشار الأمم وتفرق القبائل ، تفرقت الأديان ، وتشعبت الملل والنحل

(٣) الحجرات : ١٣ .

(٢) الروم : ٣٣ .

(١) الزمر : ٨ .

واعْتَصَمَتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِإِلَهِ تَنَاجِيهِ ، وتَلُوذِ بِهِ .

عُرِفَ أَنَّ الْعَرَبَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ .. فَصَنَعُوهَا مِنَ الْحَجَرِ ،
وَخَشَبِ ثُمَّ مَا لَبَثُوا أَنْ صَنَعُوهَا مِنَ الْعَجْوَةِ ، وَكَانُوا يَحْمِلُونَهَا فِي أَسْفَارِهِمْ حَتَّى
إِذَا جَاعُوا جَلَسُوا إِلَى شَجَرَةٍ فَأَكَلُوا مِنْهَا ثُمَّ سَجَدُوا لَهَا شَاكِرِينَ .

وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ أَعْرَابِيًّا مَسَافِرًا أَكَلَ مِنْ عَجْوَةٍ صَنَمِهِ شَيْئًا ، ثُمَّ قَامَ يَتَقَضَّى
حَاجَتَهُ بَعِيدًا ، فَجَاءَ ثَعْلَبٌ مِنَ الثَّعَالِبِ يَطُوفُ حَوْلَ مَتَاعِ الْأَعْرَابِيِّ وَالصَّنَمِ قَائِمًا
عِنْدَ الْمَتَاعِ ، فَأَخَذَ الثَّعْلَبُ يَشُمُّ رَائِحَةَ الصَّنَمِ يَسْتَسْيِغُ أَكْلَهُ فَلَمْ يُسَغِّهِ ، لِأَنَّ الثَّعَالِبَ
مِنْ فَصِيلَةِ الْكِلَابِ .. تَأْكُلُ مَا يَأْكُلُهُ الْكَلْبُ ، وَتَبُولُ كَمَا يَبُولُ الْكَلَابُ ، فَمَا كَانَ
مِنَ الثَّعْلَبِ - وَقَدْ اسْتَقْذَرَ - رَائِحَةَ الصَّنَمِ إِلَّا أَنْ رَفَعَ رِجْلَهُ وَبَالَ عَلَى رَأْسِهِ
وَالْأَعْرَابِيُّ يَرْقُبُهُ فِي حَذَرٍ وَدَهْشَةٍ . فَلَمَّا انْتَهَى الثَّعْلَبُ مِنْ فَعْلَتِهِ ، وَأَفَاقَ الْأَعْرَابِيُّ
مِنْ دَهْشَتِهِ ، قَامَ إِلَى مَتَاعِهِ فَحَمَلَهُ ، وَإِلَى صَنَمِهِ فَدَاسَهُ ، ثُمَّ أَنْشَدَ عَلَى فِطْرَتِهِ
السَّالِمَةَ هَاتِفًا :

أَرَبُ يَبُولُ الثُّعْلُبَانِ بِرَأْسِهِ ؟ . . . لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ^(١)

وَمِثْلُهُ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ عَلَى فِطْرَتِهِ السَّالِمَةِ .. وَغَرِيزَتِهِ الْبَصِيرَةِ ، وَقَدْ نَظَرَ فِي مَا
حَوْلَهُ مِنْ صَحْرَاءَ مَتْرَاسِيَةِ الْأَطْرَافِ ، تَرْتَمَى فِي أَحْضَانِ أَرْضٍ بَعِيدَةِ الْمَدَارِ ..
تَعْلُوهَا سَمَاءٌ تَتَعَاقَقُ مَعَهُمَا عِنْدَ مَدِّ الْبَصَرِ ، ذَاتُ نَجُومٍ وَأَبْرَاجٍ ، فَمَا لَبِثَ يَتَفَكَّرُ فِي
عَظَمَةِ هَذَا الْخَلْقِ ، وَيُرَدُّ بِفِطْرَتِهِ إِلَى يَدِ الْخَالِقِ فَيَقُولُ :

« سَمَاءُ ذَاتِ أَبْرَاجٍ ، وَأَرْضُ ذَاتِ فِجَاجٍ .

الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ ، وَالتَّادِمُ يَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ .

أَفَلَا يَدُلُّ هَذَا عَلَى الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ ؟...؟

(١) تَاجُ الْعَرُوسِ ٩٠ / ٢ .

وأما أصحاب الفطر السقيمة ، والعقول القاصرة ، فلم يبلغوا هذا المبلغ فتخبطوا في دياناتهم خبط عشواء متحلقين حول صنم لا ينفع ولا يضر ، أو متجهين إلى كوكب مصيره الأفول ، أو إلى نارٍ يوقدها بنفسه لتتطفئ وتخلف رماداً لا طائل من ورائه لعابد ولا ناسك .

أو حائرين حول فلسفات عقلية ، أو مناظرات ومجادلات عقيمة لا تؤدي إلى نتيجة قاطعة .

فكان من رحمة الله الخالق المدبر أن أرسل رسله مبشرين ، هادين ومرشدين ولم يترك عباده لعقولهم وأهوائهم تلعب بهم :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١)

* فبعث في كل أمة رسولا منهم ليعرفوه :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ (٢)

* يتكلم بلسانهم ، ويخاطبهم بلغتهم ليقسموا عنه ، ويبين لهم ، ليعوا ما يقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (٣)

* يعلمهم أنهم مخلوقون لله جل شأنه ، خلقهم ليعرفوه فيعبدوه ، وهم محتاجون له وهو غني عنهم :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٤)

ومنذ ذلك الوقت البعيد : تنزل الوحي ، على رسل مختارة بعناية الله لهداية الأمم والأقوام ، والتفت السماء بالأرض ، والملائكة بالأنبياء تحمل معها كتب

(١) النساء : ١٥ .

(٢) النحل : ٣٦ .

(٣) إبراهيم : ٤ .

(٤) الذاريات : ٥٦ - ٥٨ .

الله وصحفه ، لتتلوها رُسُلُه على خلقه.

فسارع إلى الإيمان بها من كُتِبَ له النجاة.

وسارع إلى نكرانها من كُتِبَ له الشقاوة والحرمان .

وتنازعت أمم الأرض أديانٌ مختلفة ، وعقائدٌ متباينة، نجملها في اثنين لا ثالث لهما.

أديان إلهية سماوية ، وأديان فلسفية عقلية .

والأديان الإلهية : أساسها الوحي ، ووسائل بيسانها وتبليغها الأنبياء والرسل.

والأديان الوضعية : أساسها العقل البشرى، ووسائل تبليغها مفكروها وفلاسفتها.

وجميع الأديان سواء كانت إلهية ، أو عقلية متفقة كلها على التمييز بين الخير والشر فكلها يدرك أن الصدق ، والوفاء ، والأمانة ، وإطعام الجائع ، وإكساء العارى ، وعلاج المرضى ، ونصرة المظلوم ، والنكاح الصحيح من مكارم الأخلاق ومحاسنها . وكلها يدرك أن الكذب والخيانة ، والسرقه ، والفساظة والغلظة ، والقتل ، والزنا، وشرب الخمر من مساوئ الأخلاق التى لا يرضاها العاقل من الناس .

والفارق بين الديانات الإلهية والعقلية: أن الديانات العقلية الفلسفية ترد الأعمال إلى ضرورة الاجتماع البشرى الذى يرى العقل المجرد ضرورة تنظيمه فى إقرار المعروف وإنكار المنكر فى صورة قوانين، ولوائح، ونظم ، يُجرِّمُها ويعاقب عليها سلطة زمنية مؤقتة سواء كان حاكما ، أو إلها مزيفا لا يملك مع الله الخالق الحقيقى شيئا.

وأما الديانات الإلهية ، فإنها ترد الأفعال كلها إلى الخالق الحقيقي للكون والإنسان، وترد التجريم، والعقاب، والجزاء إليه ، وتعتبر أن هذه الحياة التي يحيها البشر حياة مؤقتة ، معدة للأعمال ، وما يسرى فيها من جزاء إنما هو جزاء مؤقت ، وأن الجزاء الأوفى في حياة أبدية دائمة ، تقام بعد فناء هذا العالم الذي سيزول يوماً ما .

وهذا الفكر الذي جاءت به الديانات الإلهية تبلور بصفة نهائية في مسمى الإسلام ، واكتملت كل أسسه وقواعده على يد النبي محمد ﷺ ، وعلى سائر إخوانه من الأنبياء .

إذا: فما هو هذا « الإسلام » ؟

والجواب : الإسلام هو دين الله عز وجل .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (٣) .

وهو دعوة جميع الرسل ، والأنبياء .

أى أن جميع الرسل والأنبياء أمروا من الله تعالى بتبليغ « الإسلام » إلى أممهم من أولهم : « نوح » عليه السلام ، إلى آخرهم : « محمد » ﷺ ، وعلى إخوانه من الأنبياء .

قال عز وجل : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ، وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ

(٣) المائدة: ٣ .

(٢) آل عمران : ٨٥ .

(١) آل عمران : ١٩ .

عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١﴾

وقال النبي ﷺ : « الأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد » (٢) .
وما أرسل الله رسولا من هؤلاء الرسل ، ولا أتبعه نبي من بعده إلا بلغ قومه بالإسلام ، وحثهم عليه في نفسه ، وأمرهم في أنفسهم أن يسلموا ، بل وربما كان من شدة خوف الأنبياء من الله تعالى ، وخوفهم على أبنائهم وأمتهم أنه كان إذا حضر الواحد منهم الموت جمع أبناءه حوله ، وأخذ يطمئن منهم على تمسكهم من بعده بدعوة الإسلام .

والمتبع لدعوة الأنبياء جميعا من خلال نصوص القرآن الكريم يراهم حريصين جداً الحرص الذي لا حرص بعده ولا قبله على تمسكهم بمسمى الإسلام وغايته ، لا مسمى غيره ، ولا غاية سواه ، واحداً بعد واحد .
وسنمضي مع مسيرتهم المباركة بحسب ترتيبهم الزمني كما يأتي :

(١) نوح : عليه السلام :

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ سَقَامِي وَتَذُكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون . فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) .

(٢) إبراهيم : عليه السلام :

١ - ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ

(١) الشورى : ١٣ .

(٢) صحيح البخارى ٣ / ١٢٧٠ الحديث رقم (٣٢٥٩) - كتاب الأنبياء .

(٣) يونس : ٧١ .

فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾
 ٢ - ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢).

(٣) إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ،

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣).

(٤) يَعْقُوبَ (إِسْرَائِيلَ) وَيُونَا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ،

١ - ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهٍ وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤).

٢ - ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٥).

(٥) يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،

يطلب يوسف من ربه - بعد أن منَّ عليه بالنبوة والملك أن يحسن ختامه
 «بِالْإِسْلَامِ» .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٦).

(١) البقرة : ١٣٠-١٣١ . (٢) البقرة : ١٣٢ . (٣) البقرة : ١٢٧-١٢٨ . (٤) البقرة : ١٣٣ .
 (٥) البقرة : ١٣٦ . (٦) يوسف : ١٠١ .

(٦) سليمان عليه السلام:

١ - فى خطاب سليمان الذى أرسله إلى « بلقيس » ملكة اليمن يدعوها إلى « الإسلام » .

﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . (١)

٢ - طلب سليمان من معاونيه من الجن ، ومن عنده علم من الكتاب إحضار عرش « بلقيس » من اليمن إليه فى الشام قبل أن تجئ إليه « مسلمة » :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . (٢)

٣ - إقرار بلقيس « بالإسلام » الذى يعتقده ويدين به سليمان عليه السلام :

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . (٣)

(٧) موسى عليه السلام ، والنبليون حملة التوراة :

١ - يقول موسى لقومه وهو يشد من أزرهم وعزمهم ويثبتهم على الإيمان إن كانوا قد أسلموا حقيقة .

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ . (٤)

٢ - إقرار سحرة فرعون بالإيمان بالله ، وصبرهم على تعذيب فرعون ، ودعائهم إلى الله بالصبر والثبات ، وعدم إماتتهم إلا على « الإسلام » .

﴿ وَمَا تَنْتَهِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ ثَنَا رَبِّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ . (٥)

٣ - إقرار فرعون « بالإسلام » الذى عليه موسى ، وبنو إسرائيل فى آخر لحظة من عمره :

(١) نمل : ٣٠ ، ٣١ . (٢) النمل : ٣٨ . (٣) النمل : ٤٤ . (٤) يونس : ٨٤ . (٥) الأعراف : ١٢٦

﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودَهُ بَغْيًا وَعَدُوا حَتَّى إِذَا
أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ
الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١)

٤ - إثبات أن « التوراة » يحكم بها النبيون ، والربانيون ، والأخبار - الذين أسلموا
على يد موسى عليه السلام - شعب اليهود .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ
هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا
تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَاخْشَوْنَا وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِنَا ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢)

(٨) عيسى عليه السلام ، وأتباعه : الحواريون ،

١ - يتر أصحاب عيسى عليه السلام - وهم الحواريون الذين آمنوا به - أنهم
على دين « الإسلام » .

﴿ وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴾ (٣)

٢ - إثبات القرآن اعتراف أهل الكتاب - من اليهود والنصارى - وغيرهم
بالإيمان بالله تعالى ، وبالقرآن الذي سينزل على نبي آخر الزمان محمد ﷺ :

﴿ الَّذِينَ آمَنَّاهُمْ أَلَكُنَّ مِنَ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا بُتِلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ
إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا
وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ
وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ إِنَّكَ لَا تَهْدِي

(١) يونس : ٩٠ .

(٢) المائدة : ٤٤ .

(٣) المائدة : ١١١ .

مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ
الْهُدَى مَعَكَ نَنُخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ
كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾

٣- كما نجد أن الله تعالى ينشئ تماماً عن أبي الأنبياء وجدِّهم إبراهيم عليه
السلام أى مُسمًى آخر غير مسمى «الإسلام» وأى دين آخر غير دين «الإسلام» .
﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢)

(٩) محمد ﷺ : وختم الوحي والنبوات :

ثم بعث الله محمداً ﷺ برسالة الإسلام التى كلَّفَ بها إخوانه من الرسل
السابقين ، وأمره ربُّه بتبليغ الإسلام لقومه :

١ - ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ (٣)

٢ - ﴿ قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤)

ثم شاءت إرادة الله تعالى أن يجعل مُحمداً ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين وأن
يختم به الرُّوحى والنبوات إلى قيام الساعة.

١ - يقول الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (٥)

٢ - ويقول الرسول محمد ﷺ :

أ - « أَنَا مُحَمَّدُ النَّبِىُّ الْأُمِّىُّ ، وَلَا نَبِىَّ بَعْدِى » (٦)

(١) لقصص : ٥٢-١٥٧ . (٢) آل عمران : ٦٧ . (٣) الأنعام : ١٤ .

(٤) الأنعام : ٧١ . (٥) الأحزاب : ٤٠ .

(٦) صحيح البخارى - كتاب الأنبياء ، مسند أحمد ١٧٢ / ٢ .

ب - « يَا عَلِيُّ : أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي » (١)
ج - « يَا مُحَمَّد : أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ » (٢).

* كما شاءت إرادته سبحانه أن يجعل رسالة محمد ﷺ رسالة كافة للعالمين ،
عامّة للناس أجمعين إلى قيام الساعة :

١ - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٣).

٢ - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ (٤).

* وبهذا شُبِّهَ « الإسلام » كأنه قصر عظيم بُدِيَ في بنائه منذ عهد أول نبي ،
حتى كَمُلَ بناؤه ، واستقر صَرْحُهُ ، وثبتت دعائمه ، وحسُنَت صورته ببعث محمد
صلى الله عليهم جميعا وسلم.

وهذا تماماً ما صورهُ رسول الله ﷺ حيث يقول :

« مثلى فى النبیین كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع
لَبْنَةٍ لم يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنیان ويعجبون منه ، ويقولون لو تم
مَوْضِع هذه اللبنّة ؟

« فأنا فى النبیین موضع تلك اللبنّة » (٥).

* وبعد تمام نعمة « الإسلام » واكتمال الدين :

١ - نفى الحرج عن كل أتباع الإسلام الذين يتسبون إليه منذ عهد إبراهيم
عليه السلام :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ
حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ

(١) سنن الترمذى باب المناقب ، مسند أحمد ١ / ١٧٧ . (٢) صحيح مسلم ١ / ١٨٥ كتاب الإيمان .

(٣) الأنبياء : ١٠٧ . (٤) سبأ : ٢٨ .

(٥) مسند الإمام أحمد ٥ / ١٣٧ ، وانظر الأحاديث التساعية ص ٣ .

شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا
بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿١﴾

٢- ونهى عن التعرض بالأذى أو الاعتداء لأهل الكتاب من اليهود
والنصارى المندرجين بالعهد فى أمة الإسلام والذين أعرضوا عن مسمى الإسلام
إلى مسمى اليهودية، والنصرانية. والإكتفاء بدعوتهم «إلى العودة» إلى مسمى
«الإسلام» بالحسنى والرفق فإن أجابوا فلأنفسهم ، وإن أعرضوا فعليها ، و«أما
نحن» . فله «مسلمون» .

أ- ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ﴾ (٢)

ب- ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنَ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٣)

* أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ «بالاعلان» لجميع البشر أن «الإسلام»
هو الدين الثَّيِّم، وهو الصراط المستقيم :

﴿قُلْ إِنِّى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَبِيماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٤)

نتيجة هذا المبحث : حقيق هذا المبحث النتائج التالية :

١- «الدين» غريزة من الغرائز التى فطرها الله وأودعها فى الإنسان عند خلقه
كسائر الغرائز .

٢- غريزة «التدين» الكامنة فى فطرة الإنسان تحتاج إلى درجة من الإشباع

(١) الحج : ٧٨ .

(٢) العنكبوت : ٤٦ .

(٣) آل عمران : ٢٠ .

(٤) الأنعام : ١٦١ .

سداً لحاجة هذه الغريزة عند الشعور بها، تماماً كحاجته إلى الطعام لسد غائلة الجوع عند الشعور به غريزياً .

٣ - إهمال معالجة إشباع غريزة التدين يؤدي إلى الانحراف عن الله تعالى ، وعن دينه الصحيح .

٤ - للإشباع السليم لغريزة التدين عند الإنسان أرسل الله الرسل والأنبياء للناس أيا كان زمانهم أو مكانهم لإرشادهم إلى أن الحقيقة الكبرى ، والوحيدة ، والباقية التي لا تفنى إنما هي : وجود الله عز وجل .

٥ - أن جميع الرسل والأنبياء دعاةٌ لدين واحد ، له مسمى واحد : هو «الإسلام» ، وأن له غاية واحدة هي : معرفة الله الذي لا شريك له، ولا خالق سواه .

٦ - اكتملت رسالة الإسلام تماماً، وأغلقت النبوات ، وختمت الشرائع ببعث محمد ﷺ .

المبحث الثاني : الوحي الإلهي

مطلب في : الله ... والفطرة ... والأنبياء ... والوحي ...

(١) استدَلَّ إنسانٌ ما قَبْلَ النبّواتِ في مواقع مختلفة من هذا الكوكب بفطرته، وغريزته إلى أن هناك قوة عظمى وخفية هي المؤثرة في هذا العالم وجوداً، ونظاماً، ونشاطاً. وكان هذا استجابة لمطلب غريزي يدفعه إلى سوق بعض التساؤلات عن خَلْقِهِ وخالقه، والكون المحيط به ، وأنظمته، والحياة، والموت، وما وراءهما .

كما كانت استجابة لمطلب عقلي فطري يدفعه إلى ضرورة الإجابة عن ما قد يتوفر له معرفته رداً على هذه التساؤلات الغريزية .

(٢) ولما كان العقل البشرى الفطرى يختلف من إنسان لآخر فى حدّ القدرة والذكاء، كما يختلف فى حدّ الضعف والغباء، وأن الناس يتفاوتون فى المعرفة نتيجة تفاوتهم فى الاستنتاج والاستنباط من مقدمات الكون وأدلتها، لذلك لم يترك الله عزوجل - وهو الحقيقة الكبرى والوحيدة - هذا المخلوق نهياً لعقله الفطرى الذى قد يصيب عند البعض، ويخطئ عند الغالبية العظمى، لذلك «ألهم» من بينهم عقلاء... شرفاء... أمناء... أرسلهم إلى أممهم ليدلوهم على الطريق السوى... ويهدوهم إلى السبيل القويم... ويبتلوا عليهم كتباً فيها تنظيم لسلوكياتهم، وترشيد لمفاهيمهم وأعمالهم، وتعريفهم بمنازلهم عند إخطأ أو حال الصواب.

١ - ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١).

٢ - ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٢).

✽ إذا فالله تعالى هو حقيقة الوجود بلا مرأى، ولا جدال، وكل ما عداه باطل .. زائف .. زائل .

وهذا المعنى هتفت به فطرة الإنسان العربى قبل أن يُبعث النبىُّ محمد ﷺ .

قال لييد :

ألا كل شئ ما خلا الله باطلٌ وكل نعيم لا محالة زائلٌ (٣)

✽ وقد دلّت الفطرة السليمة ، والنظر السديد فى آيات الكون المنظور .. فى السماء .. فى الأرض .. فى الجبال .. فى البحار .. فى المطر .. فى الرعد .. فى كل شئ على إثبات حقيقة وجود الله تعالى .. وحقيقة أنه الخالق ..

(١) المؤمنون : ١١٥ .

(٢) الإسراء : ١٥ .

(٣) جامع البيان ١٣ / ١٤٨ .

القادر .. القاهر فوق عباده :

وفى كل شئ له آية تدل على أنه الواحد

إلى حدّ أنه من البساطة بمكان إحباط حُجة « الملحد » الذى ينكر وجود الله أصلاً عندما يُبادرُك بِسؤاله التقليدى الساذج : ما الدليل على أن الله موجود؟ فيكون إحباط ما يَظُنُّ ويدَّعى أنه سؤال مُفْهِم بمجرد عكس السؤال وردّه عليه كالآتى : وما الدليل على أن الله غير موجود ؟

عندئذ ينكشف الستار عن سهولة الإجابة عن السؤال الأول حيث تتوفر هذه الإجابة فى ملايين الملايين من الأدلة القاطعة التى لا مجال لإنكارها.

كما ينكشف الستار لا عن صعوبة الإجابة على السؤال الثانى فحسب .. بل عن استحالة وجود جواب صحيح قاطع يصلح أن يقيم لمعارض حجة.

* ولما ثبت وجود الله تعالى بالنظر فى آيات الكون المنظور، والفطرة الغريزية ، والدلائل العقلية، والمقدمات المنطقية السليمة المؤدية إلى نتائج صحيحة ثبتت له جل شأنه القدرة على كل شئ :

١ - ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

٢ - ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢).

٣ - ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣).

* وتبعا لهذا الإيمان البقيني الراسخ ، نؤمن بأن الله تعالى خَلَقَ مَا يَشَاءُ من الخلق كالملائكة من حيث شاء ، وكالجن من حيث شاء، وكالطير من حيث شاء، وكسائر الخلق من حيث شاء، فهو رَبُّ الخلائق، والعوالم، وله الحمد على كل ما خلق:

(١) البقرة : ٢٥٩ . (٢) النور : ٤٥ . (٣) فاطر : ١ .

١ - ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١).

٢ - ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢).

✽ وقدر لكل مخلوق عمله ، ووظيفته ، وقدر له مقدرته على أداء هذه الأعمال، ف شأن الملائكة مثلاً : القدرة على الهبوط إلى الأرض، والصعود إلى السماء، والتشكل بما يشاءون من الأشكال الحسنة، والأجنحة المتعددة التي تساعد على أداء وظائفهم.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ (٣).

✽ فلا غرابة إذا أن تنزل الملائكة على أشخاص مميزين ليكونوا رُسُلَ اللَّهِ إلى الناس في أمهم..

ولا يستنكر العقل، ولا العاطفة، ولا الشعور، ولا الغريزة : تلك الظاهرة التي سرنا في صلة السماء بالأرض ، ألا وهي ظاهرة : الوحي.

فلا ينكر أهل «التوراة» أن «الوحي» نزل على موسى عليه السلام بها، و«بالألواح» التي كُتبَ له فيها من كل شيء موعظة ، وبكل شيء تفصيل.

ولا ينكر أهل «الإنجيل» أن «الوحي» نزل على عيسى عليه السلام «بالإنجيل»، فيه هدى ونور، ليحكم به أهله بما أنزل الله فيه .

فظاهرة «الوحي» عند أصحاب النبوات جميعاً ظاهرة معروفة غير مُنكرة، فهي إذا ثابتة بالتواتر منذ عهد آدم، والكلام عنه من باب تعليم المتعلم ما ينبغي أن يُعلم، وليس من باب إثبات شيء يحتاج إلى إثبات؛ وما كتبه بعض الباحثين عن «إمكانية وقوع الوحي» ومحاولة إثباته، لا يعدوا أن يكون ترفقاً ببعض من يركبهم الغرور الناتج عن خلل فطروا عليه في تفكيرهم.

(٣) فاطر : ١ .

(٢) الأنعام : ١٦٤ .

(١) الفاتحة : ١ .

نتيجة هذا البحث:

- ١ - أن « الله » تعالى هو الخالق للوجود كله بلا مرء ولا جدال .
- ٢ - ثبوت الوحي المنزل على الرسل بالتواتر عن جميع الأديان السماوية .

مطلب فى : التعريف بالوحي :

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْوَحَىُّ يُوحَىٰ ﴾ (١) . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ (٢) . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحَىٰ ﴾ (٣) .
فما هو الوحي إذا ؟ ما معناه ؟ وما أنواعه ؟ :

(١) الوحي فى لغة العرب : مصدر مأخوذ من الفعل : وَحَى ، و..أَوْحَى وهو لفظ من ألفاظ الاشتراك اللغوى التى تطلق على معان منها : الإلهام ، والإشارة ، والرسالة ، والأمر ، والإيماء ويجمعها كلها معنى واحد هو : « إعلام الغير فى خفاء » (٤) . وقد ورد لفظ « الوحي » فى القرآن الكريم بهذه المعانى اللغوية الشائعة على النحو التالى :

١ - على سبيل الإلهام الغريزى الذى يعطى للكائن البسيط كالحيوانات ، والحيوانات لكى تؤدي وظائفها المنوطة بها .

ونجد هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا ﴾ (٥) .

٢ - على سبيل الإلهام الفطرى للإنسان ، حيث يتلقى الإنسان معلومة فطرية سريعة لم تكن فى سابق تفكيره .

(١) النجم : ٤ . (٢) فصلت : ٦ . (٣) الأنبياء : ٤٥ . (٤) تهذيب اللغة : ٥ / ٢٩٦ . (٥) النحل : ٦٨ ، ٦٩ .

ونجد هذا المعنى متمثلاً في تصرف « أم موسى » الذي يحدثنا به القرآن الكريم: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١).

٣ - على سبيل الوسوسة، وهو ما يحدث من تفكير الشياطين الذي تحدث عنه القرآن الكريم بقوله :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ (٢).

فهذه المعاني الثلاثة للوحي تناولها القرآن الكريم من حيث الدلالة اللغوية العامة لمعنى كلمة « الوحي » وليس من حيث الدلالة الاصطلاحية الفنية، التي تدل على الوحي بالمعنى الشرعي .

الوحيُّ : شرحاً :

يجب أن يُعرف أن أي معنى اصطلاحى ، أو شرعى لا بد وأن يكون مأخوذاً من المعنى اللغوى أو من أحد المعاني اللغوية إن كان للكلمة أكثر من معنى .

ولا يكون المعنى الاصطلاحى أو الشرعى معتبراً إذا أهمل المعنى اللغوى للكلمة، ومن هنا فإن :

الوحيُّ هو : تكليم الله سبحانه وتعالى لمن اختاره من عباده بإحدى طرق الوحي . (٣)

أو هو : كلام الله المنزل على الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم . (٤)

وقد عرفه الإمام محمد عبده بقوله :

« عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من الله تعالى بواسطة أو

(١) القصص : ٧ . (٢) الأنعام : ١٢١ . (٣) مورد الظمآن إلى علوم القرآن: ص ١٠ .

(٤) أنوار البيان فى علوم القرآن ص ٣٤ .

بغير واسطة « (١).

ومن هذه التعاريف يفهم أن للوحي الشرعى قيوداً، وضوابط يخصصه عن الإطلاق اللغوى العام، وأهم هذه الضوابط هى :

أ - له مصدر أساسى، أوْحَدٌ : وهو الله تعالى (المُوْحَى).

ب - له مُسْتَقْبَلٌ مُخْتَارٌ بعناية الله : لا يملك التنصل عن مهمة الاستقبال والتبليغ : وهو الرسول المختار (المُوْحَى إليه).

ج - له نصٌ خاصٌ يراد إبلاغه وبيانه للناس (موْحَى به).

د - له كيفية خاصة تربط المصدر بالمستقبل وهذه الكيفية هى الواسطة بين المصدر، والمستقبل (وهى صور الوَحَى).

مطلب : فى صور الوحي

للوحي صور متعددة يأتى فيها وهى :

(١) النَّفْثُ فى رَوْعِ النَبِيِّ ، أو إلقاء الإلهام فى قلبه على صورة غير مشكوك فيها أنها من عند الله .

وهذه الصورة تتم بطريقتين :

الأولى : بالإلهام .

ودليلها : قوله ﷺ : « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها ، ألا فاتقوا الله ، وأجملوا فى الطلب » (٢).

والثانية : بالرؤيا فى المنام .

ودليلها :

١ - قوله تعالى فى شأن إبراهيم وولده إسماعيل :

(١) الوحي المحمدي للشيخ محمد رشيد رضا : ص ٤٤ .

(٢) شرح السنة للبغوي ١٤ / ٣٠٤ (٤١١٢) .

﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ (١).

٢ - ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت :

« أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي : الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » (٢).

(٢) تكليم الله تعالى لنبيه من وراء حجاب.

وصورتها : أن يسمع الموحى إليه الصوت ، ولا يبصر المتكلم تنتزه الباري جل جلاله عنه.

ودليل هذه الصورة : قوله تعالى في شأن « موسى » عليه السلام :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (٣).

(٣) مَلَكٌ يَخْصَصُ بِالْوَحْيِ :

فيأتي إلى النبي ﷺ على واحد من الصور الآتية :

الأولى : صوت كصوت الجرس ، أو كدوى النحل ، أو كخفق أجنحة الملك يستخدم بالقاء القول الثقيل على قلبه ، ويكون تقدمه من أجل أن يفرغ سمعه للوحي فلا يبقى فيه مكانا لغيره .

ودليله : قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

« سألت النبي ﷺ : هل تُحس بالوحي ؟ ، فقال : أسمع صلاصلا ، ثم

(١) الصافات : ١٠٢ . (٢) صحيح البخاري بشرح السندی ٦/١ .

(٣) طه : ٩ - ١٤ .

أسكت، وعند ذلك : فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض (١).

وهذه أشد حالات الوحي قوة، كما ورد فى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت :

« سأل الحارث بن هشام رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، كيف يأتىك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىَّ فيُنصمُ عنى، وقد وعيت عنه » (٢).

الثانية : يأتىه ملك الوحي على صورته الحقيقية التى خلقه الله تعالى عليها بأجنحته الوفيرة ودليله :

١ - حديث عائشة رضى الله عنها فى رؤيته ﷺ لجبريل .

قال ﷺ : « رأيتُه مُنْهَبِطاً من السماء ساداً عِظَمُ خَلْقِهِ ما بين السماء إلى الأرض » (٣).

٢ - حديث زُرُّ بن حبيش عن عبد الله بن مسعود، قال :

« لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، قال : رأى جبريل فى صورته له سِنْمَانَةُ جَنَاحٍ » (٤).

الثالثة : يأتىه ملك الوحي على صورة « رجل » مجهول حسن الصورة لا يعرفه أحدٌ ودليله :

حديث عمر رضى الله عنه ؛ قال :

بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ . شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ . لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ . وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ . حَتَّى

(٢) صحيح البخارى بحاشية السندى ٦/١ .

(٤) صحيح البخارى ، تفسير سورة النجم ٣/١٩٣ .

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٢٢٢ .

(٣) صحيح مسلم ١/١٥٩ (٢٨٧)

جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ . وَقَالَ :
 يَا مُحَمَّدُ ! أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا
 إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ . وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ . وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ . وَتَصُومَ
 رَمَضَانَ . وَتَحُجَّ الْبَيْتَ ، إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » قَالَ : صَدَقْتَ . قَالَ فَعَجَبْنَا لَهُ .
 يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ ، قَالَ « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ،
 وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » قَالَ : صَدَقْتَ ، قَالَ :
 فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ ، قَالَ « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ . فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ ، فَإِنَّهُ
 يَرَاكَ » . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ . قَالَ « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » قَالَ :
 فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا . قَالَ : « أَنْ تُلِدَ الْأُمَةُ رَبَّتُهَا . وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ ، الْعَالَةَ ،
 رِعَاءَ الشَّاةِ ، يَطَّاءِلُونَ فِي الْبَنِيَانِ » . قَالَ : ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَ لِي « يَا
 عُمَرُ ! أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ ؟ » قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ « فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ . أَتَأْكُمُ
 يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ » .

الرابعة : يَأْتِيهِ مَلِكُ الْوَحْيِ ، عَلَى صُورَةِ رَجُلٍ مَعِينٍ مِنَ الْعَرَبِ كَانَ حَسَنَ
 الصُّورَةِ وَالْهَيْئَةِ اسْمُهُ «دَحْيَةُ الْكَلْبِي» . أَمَّا الرَّسُولُ ﷺ ، فَيَعْرِفُ أَنَّهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ ، وَيَذْكُرُ ذَلِكَ لِأَصْحَابِهِ بَعْدَ أَنْ يَنْصَرِفَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .^(١)

ودليله قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ .^(٢)

وجميع صور الوحي مجملة كلها في قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
 رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ ﴾^(٣)

(٢) الشورى : ٥١ .

(٢) الأنعام : ٩ .

(١) تفسير البغوي ٨٦ / ٢

ويُلاحظ من التدبر والنظر في ظاهرة الوحي أن لها الخصائص التالية :

الأولى : أنها قوة خارجية، ليست ذاتية في نفس النبي الذي يوحى إليه.

الثانية : أنها قوة خيرة معصومة، مهمتها الإرشاد إلى الخير، ومعصومة من الخلل والزلل في توجيه الأوامر والنواهي، والسلوكيات العامة والخاصة.

الثالثة : أنها قوة عالمية ، تمتد النبي بعلم مكنون لم يكن له به معرفة سابقة.

الرابعة: أنها حالة اختيارية .

الخامسة : أنها أمر عارض غير عادي ^(١).

ولما كنّا قد استخلصنا من تعريف الوحي بالمعنى الشرعي الخاص، والمتبّد بالإطلاق اللغوي بمفهومه العام قيوداً ، وضوابط هي :

- (١) الموحى : وهو الله تعالى شأنه.
 - (٢) الموحى به : وهو الكلام المنزل .
 - (٣) المرسل بالوحي : وهو الملك.
 - (٤) المُستقبل للوحي : وهو الرسول المختار .
- لذلك فإن كلمة « الوَحْي » قد تطلق على أغلب هذه الضوابط .
- فقد يسمى الملكُ المرسل ، وَحِيّاً .
- وقد يسمى الكلامُ الموحى به - القرآن، والحديث النبوي ، والحديث القدسي - وَحِيّاً .

❖ ويلاحظ - كذلك - أن الوحي كان ينزل بأوامر الله تعالى ، ونواهيه ، كما ينزل بالأخبار وقصص الأولين، كما ينزل فاصلاً لمنازعات وقتية، ومشاحنات عارضة.

(١) مورد الظمان في علوم القرآن ص ١٧.

وهي في كل هذه الأمور لا بُدَّ أن يُوقَفَ الوَحْيُ الرَّسُولَ الْمُوحَى إِلَيْهِ عَلَى القولِ الْمُوحَى بِهِ مِنْ حَيْثُ إِبْتَاهُ فِي السُّطُورِ وَتَدْوِينِهِ وَحِفْظِهِ فِي الصَّدُورِ ، أَمْ لَا . وَيُوقَفُهُ عَلَى مَا يَنْبَغِي مَعْرِفَتُهُ إِنْ كَانَ آيَةً يَجِبُ إِبْتَاهُهَا عَلَى أَنَّهَا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى أَمْ أَنَّهَا خَبَرٌ لِلْفَصْلِ فِي قَضِيَّةٍ أَوْ مَنَازَعَةٍ .

كَمَا نَلَاظُ - أَيْضًا - الْفَرْقَ بَيْنَ الْوَحْيِ الَّذِي هُوَ شَخْصُ الْمَلِكِ ، وَالْوَحْيِ الَّذِي هُوَ إلهَامٌ ، وَالْوَحْيِ الَّذِي هُوَ رُؤْيَا فِي الْمَنَامِ .

فَمَا كَانَ مُتَعَلِّقًا بِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى لَفْظًا وَمَعْنَى ، وَنَصًّا فَإِنَّ الْوَحْيَ « الْمَلِكُ » يَنْزِلُ بِهِ شَخْصِيًّا ، وَيُوقَفُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى نَصًّا ، كَمَا يُعْلَمُهُ مَوْقِعُ الْآيَةِ ، أَوْ الْآيَاتِ مِنَ السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ .

وَمَا لَيْسَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى نَصًّا ، وَلَكِنَّهُ مِنْ كَلَامِهِ مَعْنَى ، فَإِنَّ الْوَحْيَ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِطَرِيقِ الْإلهَامِ ، أَوْ الرُّؤْيَا ، كَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِطَرِيقِ الْمَلِكِ نَفْسَهُ غَيْرَ أَنَّ الْمَلِكَ يَخْبِرُ الرَّسُولَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ نَصًّا .

مَطْلَبٌ فِي : أَنْوَاعِ الْوَحْيِ وَخُصَائِصِهِ :

وَلِذَلِكَ يُمْكِنُ لَنَا أَنْ نَقْسِمَ « الْوَحْيَ » تَقْسِيمًا « اجْتِهَادِيًّا » وَذَلِكَ عَلَى ضَوْءِ الْمُلَاحَظَاتِ الْمُتَكَرِّرَةِ فِي مَبْحَثِ « الْوَحْيِ » إِلَى حَالَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ « نَخْتَصِمُهُمَا بِالْوَحْيِ الْمُنْزَلِ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ » وَهُمَا :

(١) وَحْيٌ جَلِيٌّ : وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ، كَلَامُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ (لَفْظًا وَمَعْنَى) . وَيُقَالُ فِيهِ : وَحْيٌ مُسْطُورٌ ، أَوْ وَحْيٌ مُسَجَّلٌ فِي اللُّوحِ الْمُحْفُوظِ ، خَصَّ « جَبْرِيلُ » مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ (غَالِبًا) بِإِنزَالِهِ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَفْرَقًا عَلَى مَدَارِ سِنَوَاتِ الدَّعْوَةِ الَّتِي بَلَّغَتْ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً .

كَمَا نَزَلَ بِالْكِتَابِ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا .

(٢) وحى خفى : وهو السنة النبوية المشرقة، التي هي (كلام الله عز وجل معنى)، وأقوال النبي ﷺ لفظاً، وأفعاله عملاً.

وهو بمثابة البيان، والتفصيل للقرآن، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١).

ويدخل فى هذا النوع الحديث القدسى.

ولما كانت صفة الوحي على هذا الاعتبار والتقسيم الاجتهادى فإننا نلاحظ خصائص عامة مشتركة بين الوحي بنوعيه خفياً أم جلياً، كما نلاحظ خصائص منفردة لكل منهما.

١- الخصائص المشتركة بين الوحي الخفى والوحي الجلى :

* أن كليهما من الله عز وجل.

* أن كليهما منزل على محمد ﷺ خاصة.

* أن كليهما قابل للتشريع (أى الأمر، والنهى، والإباحة والتحريم).

٢- خصائص الوحي الجلى وصوره :

* أن جميعه متواتر قطعى الثبوت، محصور ومحفوظ بين دفتى المصحف.

* أن نزوله بواسطة « الروح الأمين جبريل » الملك المخصص برسائل رب

العالمين إلى الرسل والأنبياء، فلا يثبت بالإلهام، ولا بالرؤيا فى المنام.

قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ (٢).

٣- خصائص الوحي الخفى وصوره :

* ليس كله متواتراً، وليس كله قطعى الثبوت لكثرتة، وتعدد روايته،

(١) النحل : ٤٤.

(٢) الشعراء : ١٩٣.

واختلاف رواته، وليس كله محصوراً في مكان واحد من كتاب واحد.
* ثبت الوحي الخفى بالإلهام، وبالرؤيا في المنام، وبجبريل عليه السلام فهو أعم من الوحي.

وهو بهذا الإثبات نوعان : توقيفى ، وتوفيقي .
* غير مقصود بذاته في الصلاة فلا تجوز الصلاة به .
* معناه من الله تعالى ولفظه من النبي ص .
* غير معجز، ولا متحد به البلغاء، وإنما هو من جوامع الكلم .
* يصح أدأؤه بالمعنى لمن قدر على فهمه ونسى خاصة لفظه، أو شك فيما حفظه منه .

* هو أعم من أن يكون إلهاماً، أو رؤيا منامية، أو بواسطة جبريل عليه السلام .
* الحديث القدسي يشتمل على الحكم، والمواعظ، وليس فيه تشريع، ولا أحكام . وعلى ألفاظه سمة خاصة تعطيه معنى القدس، أى : الطهر .

مطلب فى : كتابة الوحي ، وتدوينه ، وأشهر كتابه

١ - الوحي الجلى :

لما كان الوحي الجلى هو القرآن الكريم وهو كلام الله عز وجل المنزل على نبيه محمد ﷺ ، المتعبد بتلاوته في الصلاة .
لذلك حظى من الرعاية والعناية الغاية القصوى سواء ، كان ذلك بالحفظ فى الصدور، أو بالكتابة فى السطور .

فلم يلحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى ، إلا وقد جمع القرآن الكريم ودون فى الصحف ، إلى جانب حفظ رسول الله ﷺ له فى صدره حفظاً تاماً كاملاً يراجع جبريل ويسمعه منه فى شهر رمضان، كما حفظه عدد وفير من

الصحابة رضوان الله عليهم.

وكان أشهر كتاب الوحي بين يدي النبي ﷺ :

- * عثمان بن عفان (ت : ٣٥ هـ)
- * علي بن أبي طالب . (ت : ٤٠ هـ)
- * أبي بن كعب . (ت : ٢٠ هـ)
- * زيد بن ثابت . (ت : ٤٥ هـ)
- * أبو بكر بن أبي قحافة . (ت : ١٣ هـ)
- * عمر بن الخطاب . (ت : ٢٣ هـ)
- * عامر بن فهيرة . (ت : ٣ هـ)
- * عبد الله بن الأرقم . (ت : ٣٣ هـ تقريبا)
- * ثابت بن قيس بن شماس . (ت : ١٢ هـ)
- * خالد بن سعيد بن العاص . (ت : ١٢ هـ)
- * أبان بن سعيد بن العاص . (ت : ٣٥ هـ)
- * حنظلة بن أبي عامر الأسدي . (ت : ١٠ هـ)
- * معاوية بن أبي سفيان . (ت : ٦٠ هـ)
- * شرحبيل بن حسنة . (ت : ١٨ هـ)
- * عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول . (ت : ١٢ هـ)
- * الزبير بن العوام . (ت : ٣٦ هـ)
- * معيقب بن أبي فاطمة الدوسي . (ت : ٣٤ هـ تقريبا)
- * المغيرة بن شعبة . (ت : ٥٠ هـ)

- ✽ خالد بن الوليد . (ت : ٢١ هـ)
 ✽ العلاء بن الحضرمي . (ت : ٢١ هـ)
 ✽ عمرو بن العاص . (ت : ٤٣ هـ)
 ✽ جهيم بن الصلت . (ت : هـ)
 ✽ عبد الله بن رواحة . (ت : ٨ هـ)
 ✽ محمد بن مسلمة . (ت : ٤٦ هـ)
 ✽ عبد الله بن سعيد بن أبي سرح . (ت : ٣٦ هـ)

رضي الله عنهم أجمعين .

وقد بلغ عدد كتاب الوحي نيفا وأربعين كتابا، غير أن أكثرهم مداومة وملازمة لكتابة الوحي هو : زيد بن ثابت رضي الله عنه، أما أكثر الصحابة حفظا وجمعا للقرآن الكريم فهم :

- ✽ عثمان بن عفان . (ت : ٣٥ هـ)
 ✽ علي بن أبي طالب . (ت : ٤٠ هـ)
 ✽ أبي بن كعب . (ت : ٢٠ هـ)
 ✽ عبد الله بن مسعود . (ت : ٣٢ هـ)
 ✽ زيد بن ثابت . (ت : ٤٥ هـ)
 ✽ أبو الدرداء : عويمر بن صخر . (ت : ٣٢ هـ)
 ✽ أبو هريرة : عبد الرحمن بن صخر . (ت : ٥٧ هـ)
 ✽ عبد الله بن عباس . (ت : ٦٨ هـ)
 ✽ عبد الله بن السائب . (ت : ٧٠ هـ)

نتيجة هذا المبحث:

(١) عن «الوحي» بنوعيه الجلي ، والخفي ، وصوره التي نزل بها مصدرها واحد. وعن الوحي جاء ما عُرِفَ علمياً باسم «السنة»، وما عُرِفَ علمياً باسم «القرآن» .

(٢) أن الجيل الأول الذي شاهد الوحي وهو يتزل «بالعلم» هم الذين قاموا على تسجيله وضبطه، وحفظه ، سواء في الصدور ، أو في السطور تحت رعاية النبي ﷺ وتوجيهه ، وإرشاده .

المبحث الثالث: السنة النبوية المشرفة (الوحي الخفي)

أما الوحي الخفي (أعني السنة المشرفة) فقد تأخر تدوينها بصفة رسمية نظراً لوجود بعض الأحاديث الناهية عن كتابتها وتدوينها ، مما جعل كثيراً من حفاظ السنة ونقلتها يحجمون عن كتابتها تورعاً، وخوفاً من وقوعهم في ما نهى رسول الله ﷺ عنه. بقوله: « لا تكتبوا عني شيئاً ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه».

وقد اتخذ بعض المفرضين من تأخر تدوين السنة ذريعة للتشكيك في صحتها جملة وتفصيلاً، أو التشكيك في معظمها.

غير أن الباحث المنصف إذا أمعن النظر في الحكمة من نهى الرسول ﷺ عن التدوين لوجد أن الباعث على النهي أحفظ للسنة من الباعث على الإجازة بكتابتها.

ولو كتبت السنة في وقت متزامن مع القرآن لكان مجال الطعن فيها وفي القرآن معاً أكثر من مجال الطعن في تأخر تدوينها.

وغالب ما يؤدي إليه نظري أن النبي الأكرم صلوات الله وسلامه عليه كان أكثر تشوفاً للمستقبل عندما نهى عن التدوين المبكر للسنة مما أدى فيما بعد إلى ابتكار علوم الدفاع عنها، وإثراء الفكر الإسلامي بها، وتفتق الملكات العقلية

بمصنفاتها وبحوثها، في الوقت الذي تجنب فيه كتاب الوحي مظنة الخلط بين تدوين القرآن الكريم وتدوين السنة المشرفة، فقد أمن اللبس والخلط بينهما تماما بسبب ظهور هذا النهى الرسمى المبكر.

حتى إذا كان مطلع القرن الثانى الهجرى حفزت مجموعة من الأسباب والبواعث همة عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين إلى إصدار أمره إلى ابن شهاب الزهرى بجمع السنة وتدوينها.

وكان هذا أول أمر رسمى بتدوين وكتابة السنة.

غير أن المنية لم تمهل هذا الخليفة العظيم حتى يرى ثمرة أمنيته وقد تحققت، بل لم يقدر للسنة النبوية أن تجمع كلها من صدور الرجال فى كتاب واحد.

ولكن لم يتنه القرن الثالث الهجرى حتى دونت أهم كتب المسانيد والصحاح وهما مسند الإمام أحمد بن حنبل، وصحيح أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، وحتى وقت جمع هذين السفرين الجليلين من صدور الرواة إلى سطور الصحف كانت السنة غالبا تحفظ فى الصدور، ويتلقاها الخلف عن السلف شفاهها فى حرص شديد، ودقة تامة.

وكان هذا هو الحال الغالب والأهم بالنسبة للسنة النبوية، وإن كان قد وجد بعض الصحف المكتوبة سواء فى عهد النبى ﷺ أم فى عهد الصحابة رضى الله عنهم، غير أن هذه الصحف لم تكن من الغلبة والكثرة بالقدر الذى يمكننا من إصدار حكم قاطع بأن السنة قد دونت وجمعت كلها كما دون القرآن وجمع.

ولما كان حظ السنة فى القرون الثلاثة الأولى الغالب عليها «الرواية»، فقد حرص النقاد من حفاظ الحديث حرصا شديدا على تتبع رواة السنة ونقلتها، وتمييز مروياتهم من مرويات غيرهم من الضعفاء والمتهمين بقلة الأمانة فى نقل مآثور الكلام عن المعصوم ﷺ، لما فى «الرواية» شفاهها من مظنة الخطأ وضعف

الحفظ ، والتدليس ، بل والوضع والكذب فى بعض الأحيان، خاصة وأنه لا يوجد كتاب ضابط ، ولا سفرٌ يدوّن على الراوى مقولته، ويسجل عليه روايته ، فنشأت لذلك علوم الجرح والتعديل، وتاريخ الرواة لدفع الكذب والكذابين عن صاحب الوحي ، سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه.

فلا يوجد فى هذه الأعصر الثلاثة الأولى راوٍ إلا وقد غرّبهُ النقاد غربلة تامة، وتتبعوه فى كل شأن من شئون حياته، ووضعوه تحت قيود فنية على غاية من الدقة فى التعديل إن كان عدلا، أو فى التجريح إن كان مجروحا.

أما ما خلا القرون الثلاثة الأولى ، فقد شمر الحفاظ عن سواعد الجدّ لتدوين السنة المشرفة فى الكتب والأسفار التى ما لبثت أن أخذت من جهود الحفاظ أثمن وأغلى ما فى أعمارهم ، واجتهدوا فى ترتيبها، وتبويبها ، وتصنيفها حتى استقر غالب السنة فى أسفار عظيمة سُمى كل سفر منها بحسب اجتهاد جامع، وتبويه، وترتيبه على النحو التالى :

١ - المُسنَد : وهو كتاب يرتبه راوى أحاديثه على أسماء الصحابة بحيث يجمع أحاديث كل صحابى فى مكان واحد على حدة ، وأول من رتب الأحاديث النبوية فى مسند هو الإمام أبو داود الطيالسى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ، وأجمع المسانيد تدوينا للسنة والحديث هو شيخ الإمام البخارى الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى المتوفى سنة ٢٤١ هـ، إذ جمع فيه قريبا من أربعين ألف حديث.

٢ - الصحيح : وهو الكتاب الذى يجمع الحديث طبقا لشروط دقيقة للصحة والاعتبار مشتملة على أبواب الفقه الأكبر (فقه العقائد) ، وهى المعروفة اليوم بالصحاح الستة، وهى بحسب ترتيب أهميتها : صحيح البخارى ، مسلم ، أبو داود، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه .

٣ - السنن : وهى الكتب التى رتب الحديث طبقا لترتيب أبواب الفقه الكبير (فقه الشريعة) ، فتبدأ بأحاديث الطهارة، إلى آخر أبواب هذا الفقه، ومنها

سنن البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ وسنن الدارقطني المتوفى سنة ٣٠٦ هـ.

٤ - المصنف : وهو مثل السنن في ترتيب الأحاديث ، وأهمها : مصنف عبد الرزاق الصنعاني المتوفى سنة ٢١١ هـ ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٥ هـ.

٥ - الموطأ : وهو مثل السنن ، والمصنفات في ترتيب الأحاديث ، وأهمها : موطأ الإمام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ وموطأ محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩ هـ.

٦ - المعجم : وهو الكتاب الذي يرتب الأحاديث على أسماء الصحابة ، أو الشيوخ ، أو البلدان حسب ترتيب الحروف الهجائية لهذه الأسماء . فمثال المعجم على أسماء الصحابة : المعجم الكبير للطبراني المتوفى سنة ٣٦٠ هـ.

ومثال المعجم على أسماء الشيوخ : المعجم الأوسط للطبراني أيضا .
ومثال المعجم على أسماء البلدان : معجم السفر لأبي طاهر السلفي المتوفى سنة ٥٧٦ هـ.

٧ - الجامع : وهو كتاب الحديث المشتمل على الأبواب المختلفة من عتائد ، وأحكام ، ورقاق ، وآداب وأكل وشرب وسفر ومقام ، وما يتعلق بالتفسير والتاريخ والفتن والمثالب وغير ذلك ، مثل جامع الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ.

٨ - المُسْتَخَرَج : وهو الكتاب الذي يقوم راويه بتخريج أحاديث كتاب معين ولكن بأسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب فيجتمع معه في شيخه أو من فوقه مثل : مستخرج أبي علي الحسين بن علي الخراساني المتوفى سنة ٣١٢ هـ على صحيح الترمذي .

٩ - الجزء : جمع الأحاديث المروية عن رجل واحد من الصحابة أو من بعدهم مثل : جزء الحسن بن سفيان النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ ومستخرج

الإسماعيلي على البخاري . أو جمع الأحاديث في موضوع واحد كجزء في صلاة الضحى للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ، أو جزء في قيام الليل للمروزي المتوفى سنة ٢٩٢ هـ .

١٠ - **المُسْتَدْرَك** : هو الكتاب الذي يستدرك فيه راويه ما فات راوي كتاب آخر من الأحاديث التي شرط على نفسه شروطا معينة لروايتها . مثل : المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٥ هـ .

١١ - **المَوْضُوع** : هو كتاب جمع فيه صاحبه غالب ما رواه الواضعون والكذابون، والفرض حصره في مكان واحد ليعرف أنه كذب . مثل : الموضوعات لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ واللائي المصنوعة في الأحاديث الموضوعية للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ .

ومن هنا يعرف أنه بعد تدوين غالب السنة، واستقرار العلماء على تسجيلها في الدفاتر والأسفار قلَّت الحاجة إلى تجريخ الرواة وتبعضهم كما كان الحال في القرون الثلاثة الأولى، وصار جلّ اهتمام الرواة على نقل الأحاديث وروايتها من أسفارها المعتبرة، وليس من صدور الرواة، فاكتمى بتعديل الرواة على ستر الحال ، وثناء العلماء على الراوي، وشهادتهم له بالتقوى والصلاح دون الحاجة إلى قوانين وقواعد الجرح والتعديل التي نشأت في عصر الرواية.

وبهذا نكون قد أجمالنا القول في معنى « الوحي » بنوعيه القرآن والحديث (ومنه الحديث القدسي)، إجمالاً غير مُخِلٍّ بالمفهوم العلمي للوحي.

على أن ما يجب أن أنبه عليه هو أن تقسيم الوحي إلى خفي وجلي، ليس من قبيل التقسيم الشرعي المنصوص عليه ، وإنما هو تقسيم اجتهادي تصوري نابع من البحث والنظر والاستقراء ، للتسهيل على الفهم العام.

كما يجب التنبيه على أن « الوحي » بأنواعه كلها وحي واجب الاعتبار لا

يصح إنكار جزئية من جزئياته إذا صح ورودها طبقاً للمواصفات العلمية الدقيقة التي حققها العلماء ، ووضعوا ضوابطها.

فالسنة الثابتة بالنقل المحرر الدقيق ، كالقرآن سواء بسواء تستقل بالتشريع ويثبت بها الأحكام، ومنكرها منكر للوحي.

قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (١).
وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (٢).

وقال ﷺ : « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه » (٣).

وقالت الصحابة - وهم الذين عاينوا الوحي وشاهدوه - : « كان جبريل ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ». « وسأل رجل عبد الله بن الشخير - رضى الله عنه - كالمعترض : « حدثنا بالقرآن . كل يوم تقول قال رسول الله .. قال رسول الله !! أما تقل يوماً قال الله ؟! فقال له عبد الله : أما وإنك لرجل أحمق ، والله ما نبغى عن الله بديلاً ، ولكننا نريد من هو أعلم منا بالله (يعنى رسول الله ﷺ) .

يا هذا أو تجد الظاهر فى كتاب الله أربعاً لا يجهر فيه بالقراءة ؟ »

والواقع أن منكر السنة هو أصلاً منكر للقرآن ، لأن السنة والقرآن كليهما وحي مصدرهما النبي ﷺ . فالذى أعلمنا بالقرآن هو النبي ﷺ ، ولولاه ما عرفنا القرآن فكيف ننكر قوله بالسنة ؟ .

ولا ينسحب هذا الكلام على ما انفك عن ضوابط العلم من نقل الرواة المجرحين ، فالمجرحون من الرواة جُنبَ رواياتهم ، وغُرِبَت ، ووضعت تحت مجهر البحث العلمى والنقد الفنى المنضبط ، وقسمت الروايات كلها إلى :

(٣) النساء : ٨٠ .

(٢) الأحزاب : ٣٦ .

(١) الحشر : ٧ .

صحيح ، وحسن ، وضعيف ، وموضوع . وجُعِلَ لكل قسم دواوين ، وأسفار مستقلة منضبطة . كما عُرِفَ كل راوٍ من نقلة الوَحْيِ معرفة تامة كاملة أحاطت بكل دقة باسمه ، واسم أبيه . وأجداده ، وكنيته ، ولقبه ، وسنة مولده ووفاته ، وحياته ، وشيوخه وتلاميذه ، وكل ما ينفي الجهالة عنه في دينه أو خلقه ، ومحلّه من التعديل والجرح ، والإتقان والضبط ، بحيث لم يبق هناك إسناد ولا متن لم يخضع لمَبْضَعِ العلم سنداً أو متناً . حتى صار الإسناد وتوثيق الكلام ضابطاً من ضوابط أمة الإسلام وخاصة ، ومزية من المزايا لا تشاركها فيها أمة سواها . قال عبد الله بن المبارك رضى الله عنه : « الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء » (١) .

وروى عن محمد بن أسلم الطوسي قوله : « قرب الإسناد قُرْبٌ أو قُرْبَةٌ إلى الله عز وجل » (٢) .

فما صحَّ نقله أخذ بعين الاعتبار في تشريع الحلال والحرام .

نتيجة هذا المبحث :

أن السنة النبوية المشرفة جزء من الوحي لا ينفصل عنه ، أخذت حظّها من الحفظ مثلما أخذ القرآن سواء بسواء ، وأخذت حظّها من الجمع والتدوين مثلما أخذ القرآن سواء بسواء غير أن جمعها وتدوينها تأخر لحين الإنتهاء من استقرار القرآن الكريم بين دفتيه ، حتى إذا ما أُنْصِفَ عليه عدم الاختلاط بغيره وأصبح متميزاً جَدَّتْ الهمم لتدوين السنة مثلما جدَّ لتدوين القرآن . ثم أخذ الوحي (قرآناً وسنة) مكانه في إنشاء الحضارة الإسلامية ، ثم رُقِيَّها ، ثم استقرارها .

(١) علوم الحديث لابن الصلاح (ص ٣٥٧) ، والأحاديث التساعية (ص ٤٨ من المقدمة) .

(٢) الأحاديث التساعية ص ٤٨ المقدمة .

المبحث الرابع : القرآن الكريم (الوحي الجلى)

مطلب فى التعريف بالقرآن الكريم :

(١) فى اللفظ :

أ - إما أن يكون مصدر على وزن : « فُعْلَان » ، ويكون فعله : « قرأ » بالهمزة ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿١﴾ أى قراءته .

« وَقَرَأَ » الشئ ؛ أى : جمعه ، وضمه بعضه إلى بعض ، ويكون معنى : « القرآن » : الجمع ، والضم ؛ سمي بذلك لأنه : يجمع الآيات فيضمها فى سورة ، ويجمع السور فيضمها بعضها إلى بعض (٢) .

وقيل : سمي بذلك لكونه جامعاً لثمرة الكتب السماوية السابقة ، أو لكونه جامعاً لثمرة كل العلوم ، كما أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (٣) .

ب - وإما أن يكون من : « قَرَنَ » نقول : قَرَنَ الشئ بالشئ : إذا ضمه .

ج - وإما أن يكون لفظ « قرآن » . اسم علم مرتجل على كتاب الله غير مشتق من أى فعل (٤) .

(٢) فى الاصطلاح :

حاول بعض الباحثين حصر القرآن الكريم فى تعريف ذى قيود مميزة لخصائص القرآن فقال :

هو كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ ، المكتوب بين دفتى المصحف ، المبدوء بسورة الحمد ، المختوم بسورة الناس ، المعجز بلفظه ومعناه ، المستعبد

(١) القيامة : ١٧ .

(٢) تاج العروس : ١ / ٣٧٠ .

(٣) النحل : ٨٩ .

(٤) مباحث فى علوم القرآن : للقطان (ص ١٦) .

بتلاوته، المنشول بالتواتر».

ورغم أن القرآن الكريم لا يمكن حصره في تعريف اصطلاحى لتعذر جمع قيوده الضابطة لمعناه، الحاصرة لأوصافه؛ غير أن هذا التعريف اشتمل على أشهر قيود المعرّف، وبيانها على النحو التالى^(١):

القيد الأول:

إضافة الكلام إلى الله - عز وجل - فكانت العبارة « كلام الله » فخرج بهذا القيد : سائر كلام المخلوقين : كالملائكة والرسل والإنس والجن .

القيد الثانى:

« المنزل » خرج بهذا القيد : الكلام الإلهى الذى استأثر الله - تعالى به ، ولم ينزله على أحد من خلقه . وهذا المنزل بالنسبة لغير المنزل قليل جداً ؛ يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٧) ﴿^(٢)

القيد الثالث:

« على سيدنا محمد ﷺ » خرج بهذا القيد : الكلام الإلهى المنزل على الأنبياء والمرسلين قبله مثل : التوراة والزبور والإنجيل وصحف آدم وشعيب وإبراهيم وموسى يقول الحق - نبارك ونسألى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿^(٣) (١٦٤)

(٢) لقمان: ٢٧.

(١) أنوار البيان فى علوم القرآن ص ٧ - ١١.

(٣) النساء: ١٦٣، ١٦٤.

القيد الرابع :

« المكتوب بين دفتي المصحف ، وذلك أن النبي صلوات الله عليه وسلم كان يدعو كتبة الوحي ، ويأمرهم بكتابة الآيات والصور إثر تلقيها من جبريل - عليهما السلام - وقد أشار إلى ذلك قوله - سبحانه وتعالى - ﴿ وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍ (٢) فِي رَقٍ مُّنشُورٍ (٣) ﴾ (١) .

القيد الخامس :

« أوله سورة الحمد وآخره سورة الناس » خرج بهذا القيد ما نسخت تلاوته ، وما نسخت تلاوته وحكمه معاً (٢) .

القيد السادس :

« المعجز بلفظه ومعانيه » فقد تحدى الله - سبحانه وتعالى - الإنس والجن ، وطلب إليهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو بسورة واحدة فعجزوا قال تعالى ﴿ قُلْ لِّسِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) ﴾ (٣) . وقال - عز وجل - ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) ﴾ (٤) .

هذا ؛ من جهة اللفظ ، أما من جهة المعاني : فقد ثبت إعجازه للخلق كافة : فمن نظر إلى آيات القرآن وجدها محدودة العدد إذا ما قورنت بالمعاني التي تندرج تحت الألفاظ ولا يزال عطاء القرآن ممتداً إلى يوم الجزاء . قال - جلّت حكمته - ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٩) ﴾ (٥) .

(١) الطور : ١-٣ . (٢) أنظر مناهل العرفان ٢ / ١١٠ ، ١١١ . (٣) الإسراء : ٨٨ . . .
(٤) البقرة : ٢٣ . (٥) النحل : ٨٩ .

وقد سجل لنا التاريخ بعضاً ممن اختلت عقولهم وفسدت عقائدهم : حاولوا معارضة القرآن ففضح أمرهم وهمسوا بحالم ينالوا ، إذ أن المطلع على كلامهم يجده هراء ولغوا لا يقوى على مواجهة النصيح من كلام الخلق فضلاً عن قدرته على مواجهة كلام الخلاق ، فكانت محاولاتهم بمثابة العدم المحض .^(١)

ولقد كان القرآن معجزاً لأنه من لدن قوى قاهر أحاط بكل شيء علماً ، متصف بصفات الكمال ومنتزه عن صفات النقص فكان كلامه معجزاً لذلك ، وكلام المخلوقين صادر عن ضعيف ناقص لا يملك أسباب الكمال ، لذا فقد جاء غير معجز ولا سالم من صفات النقص .

ويخرج بهذا القيد - أيضاً - الحديث القدسي ، فهو منسوب إلى الله تعالى ، لكنه لم يصل بالفاظه ومعانيه إلى حد الإعجاز .

القيد السابع :

« المتعبد بتلاوته » فقد تعبدنا الله - عز وجل - بتلاوته واعتبرها الشارع الحكيم عبادة في حد ذاتها ، في الصلاة وفي خارجها . قال تعالى : ﴿ فَأَقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾^(٢) فقد أمر بالتلاوة في الصلاة وجعلها ركناً من أركانها لا تصح الصلاة بدونها . وقال - تبارك وتعالى - أمراً بالتلاوة حاضاً على التدبر والعمل بما في القرآن من أوامر ونواه حيث قال : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾^(٣) ، وبهذا القيد خرج الحديث القدسي والحديث النبوي ، والقرآن المنسوخ التلاوة لأن الله لم يأمرنا بتلاوتها في الصلاة ولا في خارجها ولم يتعبدنا بها كذلك .

القيد الثامن :

« المنقول بالتواتر » لم يحظ كتاب من الكتب السماوية بمثل ما حظي به

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ٥٧٧ .

(٢) المزمل : ٢٠ .

(٣) القمر : ١٧ .

القرآن الحكيم من حيث قوة السند الناقل له حتى كان معصوماً ومحفوظاً من أيدي العابثين، والمقصود بالتواتر : هو أن ينقله جمع غفير لا يمكن تواطؤهم على الكذب - عن جمع مثلهم حتى يتصل السند بالمنزل عليه ﷺ. وهكذا قد نقل إلينا القرآن بسوره وآياته بهذا الطريق القطعى الثبوت ، وقد هيا الله له الأسباب حتى كان كذلك تحقيقاً لوعده بحفظه حيث قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١).

ويخرج بهذا القيد : ما نسخت تلاوته ، والقراءات غير المتواترة سواء أكانت مشهورة أم غير ذلك مثل قراءة عبد الله بن مسعود (متابعات) عقب قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ ، وكقراءته - أيضاً - رضى الله عنه (متابعات) عقب قوله - عز وجل - ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ، فإن شيئاً من ذلك لا يسمى قرآناً ولا يأخذ حكمه (٢).

فإن قال قائل : لم اهتم علماؤنا اهتماماً بالغاً بتدوين مثل هذه القراءات أو بما نسخت تلاوته على حين أنها لا يطلق عليها حكم القرآن ولا تسمى به ؟ قيل : كان اهتمامهم بها (وبتدوينها) من أكبر الأدلة على مدى اهتمام المسلمين عامة والصحابة والأولين خاصة بتدوين كل ما يتعلق بكتاب ربهم سواء وصل سنده إلى حد التواتر أولاً. كما أنه يحتاج إلى غير المتواتر عند اختلاف الأحكام الفقهية في ترجيح أحدها على الآخر (٣).

مطلب فى بعض أسماء القرآن، وأوصافه :

(أ) أسماؤه : للقرآن أسماء كثيرة أهمها :

(١) القرآن : قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (٤).

(٢) الكتاب : قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٥).

(١) الحجر : ٩. (٢) مناهل العرفان ١/ ١٣، ١٤. (٣) المرجع السابق ١/ ١٤١. (٤) الإسراء : ٩.

(٥) البقرة : ٢.

- (٣) الفرقان : قال تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ﴾ (١).
- (٤) الذكر : قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٢).
- (٥) التنزيل : قال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ (٣).
- (٦) كلام الله : قال تعالى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ (٤).
- (ب) أوصافه : وصف الله تعالى القرآن الكريم بأوصاف كثيرة منها :
- ١- أنه : « عربى، وبشير، ونذير » قال تعالى : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا ﴾ (٥).
- ٢- أنه : « هدى، وشفاء، ورحمة، وموعظة » قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لمسأ فى الصلوة، وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ (٦).
- ٣- أنه : نور : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ﴾ (٧).
- ٤- أنه : بشرى : ﴿ مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ (٨).
- ٥- أنه : عزيز : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ (٩).

(١) الفرقان: ١ . (٢) الحجر: ٩ . (٣) الشعراء: ١٩٢ . (٤) التوبة: ٦ . (٥) فصلت: ٣-٤ .
(٦) يونس: ٥٧ . (٧) النساء: ١٨٤ . (٨) البقرة: ٩٧ . (٩) فصلت: ٤١ .

القسم الثاني

علوم القرآن

القسم الثاني

علوم القرآن الكريم

تمهيد :

علوم القرآن بالمعنى الإضافي : هي كل ما يتعلق بعلوم الحضارة الإسلامية التي ذكرنا لك أن أساسها الوحي، سواء كانت هذه العلوم دينية، أم عربية. فعلم القرآن إذاً يشمل جميع علوم الحضارة الإسلامية من فقه، وتفسير، وحديث، وعقيدة، ونحو، وصرف، وبلاغة، وأدب. وغير ذلك .

علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي : ويقصد بها مجموعة العلوم التي تتعلق بمباحثها بالقرآن الكريم خاصة سواء ما يتعلق بنزوله، وترتيبه، وجمعه، وكتابته، وقراءته، وتفسيره، وإعجازه، وناسخه، ومنسوخه، ومكيه ومدنيه، ودفع الشبه عنه، إلى آخره.

موضوع علوم القرآن : هي مسائلها المتعلقة بالقرآن الكريم من أى ناحية من النواحي المذكورة في التعريف، كل علم فيما يخص مسائله.

(١) فعلم التفسير : موضوعه : القرآن الكريم من حيث شرح آياته، وبيان معناها .

(٢) وعلم النسخ والمنسوخ : موضوعه : القرآن الكريم من حيث معرفة الآيات التي رفع حكمها بخطاب شرعي آخر مترسخ عنه في النزول.

(٣) وعلم القراءات : موضوعه : القرآن الكريم من ناحية لفظه وأدائه.

وهكذا سائر علوم القرآن الباقية موضوعها كلها « القرآن الكريم » ولكن بالحيثيات المختلفة التي تتعلق بكل فن على حدة.

علاقة علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي، بعلوم القرآن بالمعنى الإضافي :

إذا كانت علوم القرآن بالمعنى الإضافي تشمل كافة العلوم المتعلقة بالحضارة

الإسلامية بالمعنى العام، وأن علوم القرآن بالمعنى الإصطلاحي تتعلق بالقرآن الكريم بالمعنى الخاص.

فإن العلاقة بين المعنى الإصطلاحي، والمعنى الإضافي كعلاقة الفرع بالأصل، ونسبته إليها كنسبة الفرع إلى أصوله، أو الدليل إلى مدلوله. كما عبر الزرقاني في « المناهل » (١).

فائدة علوم القرآن الكريم،

لما كانت الحضارة الإسلامية ككل مبنية أصلاً على «الوحي». سواء أكان جلياً وهو «القرآن». أم خفياً، وهو «السنة». فإن «المفسر» للقرآن، والشارح للسنة يحتاج إلى أدوات يُفسر بها القرآن لتعينه على تقريب مراد الله تعالى من آياته إلى أذهان الناس.

ولا وسيلة لهذا إلا بمعرفة العلوم التي تعينه على ذلك.

ومثل علوم القرآن هنا كمثل علوم الحديث بالنسبة لمن أراد أن يدرس علم الحديث. وهو ما عبر عنه السيوطي في مقدمة «الإتقان». حين قال :

« ولقد كنت في زمان الطلب أتعجب من المتقدمين إذ لم يدونوا كتاباً في أنواع علوم القرآن، كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث». ثم أخذ يستعرض ما وقع له من مشايخه في علوم القرآن (٢).

وبهذا يعرف في الجملة أن من أراد أن يقترب من مراد الله تعالى في آيات القرآن فعليه أن يلم إلماماً كافياً بعلوم القرآن فهي وسيلته التي تعينه على ذلك.

أهمية علوم القرآن،

(١) لا شك أن القرآن الكريم نفسه هو أساس مادة التشريع والأحكام، وبيان

(١) مناهل المرفان لمحمد عبد العظيم الزرقاني ٢٨/١.

(٢) مقدمة كتاب «الإتقان» للسيوطي ٤/١.

الحلال والحرام، ولا يعرف ذلك إلا من خلال معرفة علوم القرآن الكريم كمعرفة المكي والمدني، وأول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل، ليتوصل بذلك إلى ما إذا كان الحكم منسوخاً أو محكماً، فهذه العلوم هي التي تُمَدُّ المفسر ببيان التفسير، وتمد الفقيه بمعرفة الأحكام، وتمد الأصولي بالقواعد الكلية.

(٢) ولمواقع النظم القرآني غرض لا يعرفه إلا من تمارس بعلم البلاغة، ولبیان إعجاز القرآن، وبلاغته يلجأ إلى دراسة علم إعجاز القرآن ودراسة أسلوبه.

(٣) وكذلك فإن معاني القرآن، وأسلوب القرآن، وضمائره، كلها تتضافر مع علم النسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، المتقدم والمتأخر، وغيرها من علوم القرآن في خدمة القضايا الكلية التي نزل القرآن أصلاً لمعالجتها سواء في النواحي الاجتماعية، أم السياسية، أم الاقتصادية، أم الحربية، أم الأخلاقية، أم غير ذلك.

تطور علوم القرآن

يرى كثير من الباحثين أن علوم القرآن لم ترعرع وتشب عن الطوق إلا على يد بدر الدين الزركشي في نهاية القرن الثامن الهجري.

غير أنه يحسن بنا أن نلقى الضوء في اختصار على تاريخ بدء هذا العلم ومراحل نموه في النقاط التالية:

* نشأت علوم القرآن في صدور الصحابة - رضوان الله عليهم - حيث كانوا أعلم الناس بالقرآن ومعرفة علومه دون أن تكون لهذه العلوم ثمة شيء من التدوين أو التسجيل، شأن كافة العلوم التي نبتت في صدور الصحابة، وعرفوها وميزوا آيات الذكر الحكيم على ضوئها دون أن تُسمى هذه العلوم، فضلاً عن أن يكون لها نصيب من التدوين، إذ كان النهي عن تدوين غير القرآن أمر صاحب الرسالة - صلوات الله وسلامه عليه - مخافة أن يلتبس غير القرآن به.

وما أن كانت الخلافة الراشدة الثالثة حتى هبَّ عثمان بن عفان - رضي الله عنه - بجمع القرآن على لغة واحدة هي لغة قريش، وعلى رسم واحد في الكتابة

عُرف حتى يومنا هذا باسم « الرسم العثماني » . وكان هذا العمل بعد أن بلغه أن المسلمين في الأمصار من أهل القبائل المختلفة يكادون يتقاتلون لاختلاف القراءات والروايات .

وما أن جُمع المصحف على لغة واحدة ، ورسم واحد ، حتى نسخت منه عدة نسخ أرسلت إلى مختلف الأمصار الإسلامية ، وأحرق ما عداها .

وبهذا يكون خليفة المسلمين الثالث عثمان - رضى الله عنه - قد وضع أول لبنة في « علم رسم القرآن » . وهو أحد « علوم القرآن » وهو علم الرسم والضبط . ولما انتقل مقر الخلافة من المدينة إلى الكوفة في عهد على - كرم الله وجهه - وانتشر أصحاب رسول الله ﷺ : ظهرت مدارس التفسير في الأمصار الإسلامية وعلى رأسها :

(١) المدرسة المكية : وشيخها ابن عباس - رضى الله عنهما - وتلاميذها : مجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم .

(٢) المدرسة المدنية : وشيخها أبى بن كعب - رضى الله عنه - وتلاميذها : أبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظى ، زيد بن أسلم العدوى ، وغيرهم .

(٣) المدرسة العراقية : وشيخها عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - وتلاميذها : الحسن البصرى ، علقمة النخعى ، ومسروق بن الأجو ، وعامر الشعبى ، وغيرهم .

وقد قدّم لنا المعنيون برصد علوم القرآن مادة علمية وفيرة ، سواء ما يتعلق منها بإنشاء علوم القرآن علماً ، أو ما يتعلق منها بحصر ما كتب حولها منذ نشأة هذه العلوم .

وإذا كان القرآن الكريم هو أصل الأصول في إنشاء الحضارة الإسلامية فلا غرابة أن تكون العلوم التى تأسست على هذا الأصل قد بلغت عشرات العلوم .

وإذا نحن تتبعنا ما رصده بدر الدين الزركشى، وجلال الدين السيوطى من علوم القرآن الكريم وحده لوجدنا أنها تعدت السبعين علماً.
وهذا السيوطى على وجه التحديد يذكر لنا ثمانين علماً من علوم القرآن الكريم.

والناظر فيها إجمالاً يجدها تدرج تحت ست مجموعات يمكن إجمالها على النحو التالى :

المجموعة الأولى : علوم تتعلق بنزول القرآن الكريم، وتبلغ ستة عشر علماً هى :

- ١ - علم معرفة : ما نزل بمكة، وما نزل بالمدينة .
- ٢ - علم معرفة : ما نزل فى الحضر، وما نزل فى السفر .
- ٣ - علم معرفة : ما نزل فى الليلى ، وما نزل فى النهار .
- ٤ - علم معرفة : ما نزل فى الصيف، وما نزل فى الشتاء .
- ٥ - علم معرفة : ما نزل فى الفراش ، وما نزل فى النوم .
- ٦ - علم معرفة : ما نزل فى الأرض، وما نزل فى السماء .
- ٧ - علم معرفة : أول ما نزل من القرآن .
- ٨ - علم معرفة : آخر ما نزل من القرآن .
- ٩ - علم معرفة : أسباب نزول آيات القرآن وسوره .
- ١٠ - علم معرفة : ما أنزل من القرآن على لسان بعض الصحابة .
- ١١ - علم معرفة : ما تكرر نزوله من الآيات ، أو السور .
- ١٢ - علم معرفة : ما تأخر حكمه عن نزوله، وما تأخر نزوله عن حكمه .
- ١٣ - علم معرفة : ما نزل مفرقا، وما نزل جمعا .
- ١٤ - علم معرفة : ما نزل مشيعاً ، وما نزل مفرداً .
- ١٥ - علم معرفة : ما أنزل من القرآن على بعض الأنبياء، وما لم ينزل منه

على أحد قبل محمد ﷺ .

١٦ - علم معرفة : كيفية إنزاله .

المجموعة الثانية : علوم تتعلق بذات القرآن الكريم ، وتصل إلى تسعة

علوم وهى :

١٧ - علم معرفة : أسماء القرآن ، وأسماء سوره .

١٨ - علم معرفة : عدد سوره ، وآياته ، وكلماته ، وحروفه .

١٩ - علم معرفة : فواصل الآى .

٢٠ - علم معرفة : فواتح السور .

٢١ - علم معرفة : خواتم السور .

٢٢ - علم معرفة : مناسبة الآيات ، والسور لما قبلها ، وما بعدها .

٢٣ - علم معرفة : فضائل القرآن .

٢٤ - علم معرفة : أفضل القرآن ، وفاضله .

٢٥ - علم معرفة : خواص القرآن .

المجموعة الثالثة : علوم إجرائية تتعلق بالقراءة ، والكتابة ، والأدب ، وتبلغ

عشرة علوم .

أ- ما يتعلق بالقراءة ،

٢٦ - علم معرفة : أماكن الوقف ، وأماكن الابتداء فى القراءة .

٢٧ - علم معرفة : الإدغام ، والأظهار ، والإخفاء ، والإقلاب .

٢٨ - علم معرفة : ما ينبغى أن يمد ، وما ينبغى أن يقصر .

٢٩ - علم معرفة : الإمالة ، والفتح .

٣٠ - علم معرفة : تخفيف المهموز .

٣١ - علم معرفة : الموصول لفظاً ، المفصول معنى .

ب- ما يتعلق بالكتابة:

- ٣٢- علم معرفة : رسم خط المحصف.
- ٣٣- علم معرفة : جمع القرآن ، وترتيبه .
- ٣٤- علم معرفة : كيفية تحمله ، وحفظه .
- ٣٥- علم معرفة : آداب تلاوته ، وآداب تاليه.
- المجموعة الرابعة : علوم تتعلق بدرجة تحمُّل القرآن عن السلف حفظاً، ورواية. وتصل إلى ثمانية علوم هي :
- ٣٦- علم معرفة : حفاظه ، ورواته.
- ٣٧- علم معرفة : العالي والنازل من أسانيده.
- ٣٨- علم معرفة : المتواتر.
- ٣٩- علم معرفة : المشهور .
- ٤٠- علم معرفة : الآحاد .
- ٤١- علم معرفة : الشاذ.
- ٤٢- علم معرفة : المدرج.
- ٤٣- علم معرفة : الموضوع .

المجموعة الخامسة: هي العلوم المستنبطة من القرآن ، وهي أنواع :

أ- علوم اللغة، والنحو، والبلاغة.

- ٤٤- علم معرفة : مفردات القرآن .
- ٤٥- علم معرفة : غريب القرآن .
- ٤٦- علم معرفة : ما وقع في القرآن بغير لغة أهل الحجاز.
- ٤٧- علم معرفة : ما وقع في القرآن بغير لغة العرب.

- ٤٨- علم معرفة : إعراب القرآن .
- ٤٩- علم معرفة : المحكم والمتشابه.
- ٥٠- علم معرفة : العام والخاص.
- ٥١- علم معرفة : المجميل والمبين.
- ٥٢- علم معرفة : مطلقه ومقيده.
- ٥٣- علم معرفة : مشكلة ، وموهم الاختلاف ، والتناقض.
- ٥٤- علم معرفة : مقدمه ، ومؤخره .
- ٥٥- علم معرفة : منطوقه ، ومفهومه .
- ٥٦- علم معرفة : الخطاب فى القرآن ، ووجوهه.
- ٥٧- علم معرفة : حقيقة القرآن ومبجازه .
- ٥٨- علم معرفة : تشبيهه ، واستعارات.
- ٥٩- علم معرفة : كنياته، وتعريضاته.
- ٦٠- علم معرفة : الحصر، والاختصاص.
- ٦١- علم معرفة : الإيجاز والإطناب .
- ٦٢- علم معرفة : الخبر والإنشاء.
- ٦٣- علم معرفة : بديع القرآن .
- ٦٤- علم معرفة : إعجاز القرآن .
- ٦٥- علم معرفة : الوجوه والنظائر.
- ٦٦- علم معرفة : المتشابه.
- ٦٧- علم معرفة : المبهم .
- ٦٨- علم معرفة : أسماء من نزل فيهم القرآن .
- ٦٩- علم معرفة : ما وقع فى القرآن من الأسماء ، والكن، والألقاب .

٧٠- علم معرفة : أمثال القرآن .

٧١- علم معرفة : أقسام القرآن .

٧٢- علم معرفة : جدل القرآن .

٧٣- علم معرفة : النسخ والمنسوخ .

ب- علوم أخرى أشار إليها القرآن الكريم تنبيهها لا تفصيلاً :

٧٤- كعلم الأجنة، والطب النفسى والعصوى، والعلوم الفلكية،

والجغرافية، وعلوم الحرف، والصناعات، وغيرها .

المجموعة السادسة: وهى علوم تتعلق بخدمة القرآن تفسيراً، واستنباطاً، وبياناً

وتأويلاً .

٧٥- علم معرفة : تفسير القرآن .

٧٦- علم معرفة : الأدوات التى يحتاج إليها المفسر .

٧٧- علم معرفة : القواعد النحوية التى يحتاج إليها المفسر .

٧٨- علم معرفة : شروط المفسر وآدابه .

٧٩- علم معرفة : غرائب التفسير .

٨٠- علم معرفة : طبقات المفسرين .

وللباحثين تقرير هذه العلوم واستنباط ما يشاءون منها من علوم القرآن

الكريم، فهو معين لا ينضب، وقد قال من نزل عليه ﷺ :

« هو جبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذى لا

تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على

كثرة الرد، ولا تنتضى عجائبه » (١)

(١) سنن الترمذى ١٧٢/٥ الحديث رقم ٢٩٠٦ .

الباب الأول

علم التفسير

الباب الأول

علم التفسير

تمهيد ، وتعريف :

من المفيد جداً أن نقول: إن علم «التفسير» هو أصل علوم القرآن كلها؛ وهو أول ما نشأ من هذه العلوم، وكانت نشأته بذرة طيبة نبتت وترعرعت في أحضان «الوحي».

فالمفسر، والمبين الأول عن الله تعالى، هو رسول رب العالمين، ومن أنزل عليه القرآن الذي طُلب بأن يكون هو المبين، والموضح، والمفسر له.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (١).

وكان تفسير النبي ﷺ في الحدود المطلوبة التي احتاج الناس إليها في زمنه، فلم يؤثر عنه ﷺ أنه فسر جميع القرآن آية آية.

ذلك أن القرآن كان ينزل فيترجم إلى سلوك، وواقع عملي، وكان هذا السلوك الواقعي هو أعظم ما يُفسر القرآن ويبينه، ويوضحه، إلى جانب أن القرآن كان ينزل بلغة العرب، وما تعارفوا عليه من استعمالاتها البلاغية المختلفة، ولم يكونوا قد اختلطوا - بعدُ - بغيرهم من أصحاب اللغات الأخرى.

وكان منهج النبي ﷺ في بيانه وتفسيره للقرآن يقوم على القرآن نفسه، فما هو مبهم في موضع موضع في موضع آخر كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (٢). عرّفوا في سورة النساء بأنهم النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٣).

(٢) فاتحة الكتاب : ٧.

(١) النحل : ٤٤.

(٣) النساء : ٦٩.

كما اعتمد تفسيره ﷺ على ما كان « بوقفه الوحي » عليه من التفسير، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ^(١) ؛ قال ﷺ ؛ الكوثر «نهر في الجنة أعطانيه ربِّي» ^(٢).

أو ما كان ينزل لسبب من الأسباب الكثيرة الواردة في مظانها المختلفة من علم التفسير .

ولم يكن ثمة حاجة إلى تدوين التفسير في عهده ﷺ لبواعث هامة اقتضتها النبوة ، وهي النهي عن تدوين شيء « غير القرآن » آنذاك ، وهو باعث لا يدركه إلا النبيُّ بينما يلوكه بالنقد من يجهل مثل هذا الباعث الهام .

ولكن المتفحص لهذا الباعث يرى أنه من قبيل الإرهاصات النبوية للمستقبل ، فعدم تدوين شيء من تفسير النبي ﷺ ، أو شيء من أحاديثه في غير مجال التفسير ، أفسح المجالات الواسعة لظهور علوم الحضارة الإسلامية ، وهي مئات العلوم .

لأنه لما لم تُدَوَّن علوم القرآن ، ولا علوم الحديث ؛ ظهر الإفتيات على الأمة ورسولها بظهور الكذابين ، والوضاعين ، فقام الجهابذة من العلماء لوضع القوانين العلمية الضابطة لعلوم القرآن ، ولعلوم الحديث ، ولولا ذلك ما شحذت الهمم لثل هذا القيام .

وكان أول ما ظهر علم تفسير القرآن الذي صار بعد ذلك محتاجاً إلى إظهار كافة علوم القرآن علماً علماً .

فالمفسر صار يحتاج في تفسيره إلى معرفة ، القراءات الواردة عن المعصوم ﷺ لأن هذه القراءات بمثابة بيان للقرآن ، وتفسير له .

واحتاج في تفسيره إلى معرفة علوم نزوله : كالمكي والمدني ، وما نزل أولاً ، وما نزل آخرأ ؛ وغير ذلك من علوم القرآن .

وكان كلما تباعد الزمان عن وقت نزول الوحي قلَّت الحاجة إلى ذلك في زمن التنزيل لقربهم من التعامل الذاتي مع الوحي ، وشارحه المكلف بالبيان وهو

(٢) صحيح البخاري بحاشية السندی ٢٢١ / ٣ .

(١) سورة الكوثر

رسول الله ﷺ .

فلا غرابة إذا أن يكون التفسير هو أم علوم القرآن كلها، وأنها إنما ابتكرت ونشأت لخدمة التفسير، فالتفسير إذا علم خادم لكتاب الله عز وجل، وعلوم القرآن كلها، أو جلُّها - على أقل تقدير - خادمة لعلم التفسير .

فأصبح من اللازم علينا أن نجعل منهجنا في هذا المدخل وفقاً لما عَنَوْنَا به هذه الدراسة وهي (مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن) لِيُخَبِّرَ عنوان هذه الدراسة عما يحتويه باطنها من القصد العلمي، ويلمس كبد الحقيقة منها .

تعريف التفسير: يستعمل التفسير في الكشف الحسى ، كما يستعمل في الكشف عن المعانى المعقولة، والاستعمال الثانى أكثر .

التفسير : لغة مأخوذ من «الْفَسْر» وهو: الإبانة وكشف المغطى .

والتأويل : ردُّ أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر .

وقال ثعلب : « التفسير والتأويل واحد »^(١) .

واصطلاحاً : عرفه الزركشى فى « البرهان » بأنه :

١ - علم يُعرف به فهم كتاب الله تعالى المنزل على محمد ﷺ ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه^(٢) .

٢ - أو هو : «علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية» .

٣ - أو هو : علم يبحث فى نزول الآية وسورتها وأقاصيصها، والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب نكيتها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها .

ويظهر من هذه التعاريف أن موضوع التفسير هو آيات القرآن الكريم من حيث بيان معانيها واستخراج أحكامها وحكمها .

(١) القاموس المحيط (مادة: فَسْر) . (٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١ / ١٣ .

مبحث فى : نشأة التفسير ومراحله

- ١- كان القرآن ينزل منجماً على رسول الله ﷺ على مدى ثلاثة وعشرين عاماً فمنه ما كان ينزل على الحوادث والأسباب، فيكون هذا بيانه وتفسيره، ومنه ما كان ينزل ابتداءً، وفيه من بواطن العلم ما لا يعرفه أحد إلا رسول الله ﷺ فيفسره ويوضحه للناس كما ورد فى تفسير الكوثر فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال : « الكوثر نهر فى الجنة أعطانيه ربي » .
- فكان النبي ﷺ هو المصدر الأول للتفسير ، والمرجع الأساسى المبين لمراد الله - تعالى - على وجه الحقيقة .

- ٢- وانتقل علم رسول الله ﷺ فى معرفة كتاب الله وبيان معانى آياته إلى فئة معينة من أصحابه - رضى الله عنهم - وكانوا ستة عشر نفرأ هم أعلم الأمة بالتفسير وهم :

(أ) من الرجال :

- | | |
|---------------------------------------|---|
| ١- أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - | ٢- عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - |
| ٣- عثمان بن عفان - رضى الله عنه - | ٤- على بن أبى طالب - رضى الله عنه - |
| ٥- عبد الله بن عباس - رضى الله عنه - | ٦- عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - |
| ٧- أبى بن كعب - رضى الله عنه - | ٨- زيد بن ثابت - رضى الله عنه - |
| ٩- أبو موسى الأشعرى - رضى الله عنه - | ١٠- عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - |
| ١١- أنس بن مالك - رضى الله عنه - | ١٢- أبو هريرة - رضى الله عنه - |
| ١٣- عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - | ١٤- عبد الله بن عمرو - رضى الله عنه - |
| ١٥- جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - | |

(ب) ومن النساء : ١٦ - عائشة - رضى الله عنها .

أما الستة نفر الأخيرة فلم يرو عنهم من التفسير سوى النذر اليسير وبقي علم التفسير منحصراً كله في العشرة رجال الأول (١).

غير أن المكشرين منهم في رواية التفسير عن النبي ﷺ ، بله الاجتهاد أيضاً في الحدود الشرعية انتهى إلى أربعة منهم سذكهم أيضاً في الترتيب التالي بحيث الأكثر فالأقل وهم :

١ - عبد الله بن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ٢ - عبد الله بن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

٣ - علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه ٤ - أبي بن كعب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

وعلى علم هؤلاء الأربعة نما علم التفسير وترعرع .

كما نشأت على أيديهم أهم مدارس التفسير فيما بعد، عندما تفرق الصحابة في الأمصار بسبب نقل الخلافة الإسلامية من المدينة إلى الكوفة في زمن الخليفة الرابع علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه ، وبسبب الفتوحات الإسلامية .

(١) فتشأت المدرسة المكية في التفسير على يد ابن عباس - رضي الله عنهما -

(٢) ونشأت المدرسة المدنية على يد أبي بن كعب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

(٣) ونشأت مدرسة العراق في الكوفة على يد عبد الله بن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

وبهذا انتقل التفسير من المرحلة الأولى في عصر الصحابة إلى المرحلة الثانية

في عهد التابعين، ثم انتقل من صدور التابعين إلى صدور أتباع التابعين .

وكان التفسير خلال هذه العهود الثلاثة يحتفظ بطابع الرواية والمشافهة من

الصدور إلى الصدور، لأنه كان جزءاً لا يتجزأ من علم الحديث ، حتى ماجرى عليه

علم الحديث بعد ذلك من التدوين في أواخر عهد الدولة الأموية وبداية الدولة

العباسية .

(١) الإثنان للسيوطي ٤ / ٢٠٤ .

مطلب فى : أقسام التفسير وأنواعه :

يختلف الباحثون فى تقسيم التفسير باعتبار اصطلاحاتهم فى هذا التقسيم إذ يعتمد ذلك على قرائنهم ، واجتهاداتهم فى التفریع وتنظيم العلوم على النحو التالى :

(١) تقسيم عبد الرزاق بن همام الحميرى عن ابن عباس - رضى الله عنهما -

قال: التفسير أربعة أقسام :

- ١ - قسم تعرفه العرب فى كلامها .
- ٢ - وقسم لا يعذر أحد بجهالة من الحلال والحرام .
- ٣ - وقسم يعلمه العلماء خاصة .
- ٤ - وقسم لا يعلمه إلا الله وحده .

قال الزركشى فى البرهان : وهذا تقسيم صحيح^(١).

(٢) تقسيم عام يقول به بعض الباحثين فيقسمه إلى قسمين اثنين هما :

أ- تفسير جاف لا يتجاوز حلُّ الألفاظ ، وإعراب الجمل ، وبعض النكات

البلاغية .

ب - تفسير هادف غرضه تجلية هدايات القرآن وتعاليمه ، وحكمة الله فيما

شرع للناس .

(٣) تقسيم ثالثا مشهور علمياً ، وهو ثلاثة أقسام :

أ- تفسير بالرواية ، ويسمى أيضاً : « التفسير بالمأثور » .

ب - تفسير بالدراية ، ويسمى أيضاً : « التفسير بالرأى » و « التفسير بالاجتهاد » .

ج - تفسير بالإشارة ويسمى أيضاً : « التفسير بالإشارى » .

(١) البرهان للزركشى ١٦٤ / ٢ .

وهذا التقسيم الأخير هو ما يجرى عليه العمل فى الأوساط التعليمية، لانه أقرب تفريعاً إلى النواحي العلمية المتعلقة بالدراسات الجامعية والمدرسية .

وستحدث عن كل نوع أو قسم، أو لون من هذه الألوان الثلاثة الأخيرة أيضاً فى مباحث مستقلة إن شاء الله تعالى .

مطلب فى : شروط المفسر، وآدابه

أولاً : شروط المفسر :

ينبغى ألا يتصدى للتفسير من لم يُحط بمجمل الشروط التى حددتها العلماء لمن يتصدى للبيان عن مراد الله - تعالى - وأهمها :

١ - أن يكون المفسر صحيح الاعتقاد بالله تعالى، فإن صحة العقيدة تقى المفسر من تحريف النصوص، وخيانة الآيات، والوقاية من الزلل فيها .

٢ - التخلّى عن الأهواء المذهبية، والتخلّى بالحق لوجه الحق دون لى أعناق الآيات لمذهب يروج له، أو عقيدة خاصة ينحرف بالقرآن إليها .

٣ - ألا يخوض فى التفسير الاجتهادى حتى يتم له النظر والإثبات فى التفسير بالمأثور على النحو التالى :

أ - أن يطلب التفسير من القرآن نفسه، فإن القرآن يشرح بعضه بعضاً فى آيات، مختلفة .

ب - ثم إن لم يجد: طلب التفسير من السنة فإن النبى ﷺ هو المين الحثيث عن الله - تعالى - ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (١) .

ج - ثم إن لم يجد: طلب التفسير فى أقوال الصحابة ، فهم أقرب الناس

(١) النحل : ٤٤ .

-مبعاً إلى رؤية الوحي ، ومعرفة الوقائع ، وأقرب إلى التقوى وسمت النبي ﷺ ،
قرب الأجيال جميعاً إلى الملكة اللغوية التي نزل بها القرآن الكريم .

د- ثم إن لم يجد : اجتهد في تفسير آيات الذكر الحكيم بما حصل من
أدوات الضرورية واللازمة لكل مفسر وهي تحصيل العلوم المعينة على التفسير
والبيان وأهمها :

- ١- العلم باللغة العربية ٢- العلم بالنحو ٣- العلم بالاشتقاق
- ٤- علم الأبنية. ٥- علوم البلاغة الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع
- ٦- علم القراءات. ٧- علم الكلام. ٨- علم أصول الفقه.
- ٩- علم أصول الدين ١٠- علم السيرة والقصص.
- ١١- علم النسخ والمنسوخ. ١٢- علم الحديث.
- ١٣- علم الموهبة.

ثانياً : آداب المفسر :

- ١- حُسن النية، وسلامة القصد لله تعالى .
- ٢- حُسن الخلق
- ٣- الورع والتقوى .
- ٤- تحري الصدق والضبط في النقل
- ٥- عزّة النفس .
- ٦- التواضع ولين الجانب .
- ٧- الجهر بالحق .
- ٨- التروى والأناة في سرّ التفسير .
- ٩- حُسن الإعداد وطريقة الأداء .
- ١٠- تقديم مَنْ هو في العلم أولى منه .

والله أعلم

مبحث فى الأربعة المكثرون فى التفسير من الصحابة

رأينا أن التفسير، قام فى باكورته الطاهرة الأولى على جهود خمسة عشر صحابياً، شاركهم أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

فكان لجهود هؤلاء الستة عشر فضل السبق فى خدمة القرآن الكريم، وإرساء المادة العلمية القيمة لعلم التفسير الذى هو الغرض الأول من أنزاله ليكون عقيدة، وتشريعاً، وأخلاقاً وارساءً لدعائم الحضارة الإسلامية .

غير أن ثمة أربعة منهم قامت على أكتافهم مهمة التفسير فى جيلهم، ثم تواصلت مهمتهم الطيبة المشكورة حتى امتدت فيما بعد إلى الأنصار الإسلامية، فيما سنعرفه عند الحديث عن مدارس التفسير فى عصر التابعين، وهؤلاء الأربعة هم: ابن عباس، وابن مسعود، وعلى وأبى رضى الله عنهم جميعاً، وسنوجز الكلام عنهم فيما يأتى :-

(١)

عبد الله بن عباس - رضى الله عنه -

التعريف به :

✽ هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشى، الهاشمى ابن عم رسول الله ﷺ .

✽ ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، والنبي ﷺ محصور بالشعب بمكة.

✽ توفى رسول الله ﷺ وعمر ابن عباس ثلاث عشرة سنة وقيل : خمس عشرة سنة

✽ لازم النبي ﷺ لقربته منه عليه الصلاة والسلام، ولأن خالته ميمونه أم المؤمنين

زوج النى ﷺ .

✽ مات - رضى الله عنه - بالطائف ودفن بها سنة (٦٩ هـ) وله من العمر سبعون سنة.

علم ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -

حظى ابن عباس بموهبة علمية فذة جعلته على درجة عالية من الاجتهاد، ومعرفة تامة بالفقه ومعانى كتاب الله العزيز مما جعل شخصية عظيمة مثل شخصية عمر بن الخطاب الخليفة الثانى - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يرفع منزلته عنده ويدنيه منه ويقربه من مجالس كبار الصحابة ومتقدميهم فى السن والمنزلة، حتى أن ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يقدم لنا بنفسه هذه الصورة فى بيانه التالى الذى نقله البخارى إلينا .

« كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد فى نفسه، وقال : لِمَ تُدْخِلُ هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر : إنه من أعلمكم فدعاهم ذات يوم، فأدخلنى معهم، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم، فقال : ما تقولون فى قول الله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً : فقال لى : أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت : لا . فقال : ما تقول؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله فقال ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ وذلك علامة أجلك ﴾ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول^(١) .

لم يصل ابن عباس إلى هذه المنزلة إلا بشيئين هامين :

الأول : دعاء النبى ﷺ له : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل »^(٢) .

الثانى : دأبه على تحصيل العلم فقدا مكث يعقل النبوة والوحى ثمانى سنوات على الأقل فى بيت رسول الله ﷺ عند خالته أم المؤمنين «ميمونة» فنهل من بيت النبوة فى تلك الفترة ما شاء الله له أن ينهل^(٣) .

وبعد أن لحق رسول الله ﷺ بربه انصرف ابن عباس إلى كبار الصحابة يستزيد

(١) من صحيح البخارى بحاشية السندى ٢٢٢/٣، الإتيقان للسيوطى ٢٠٦/٤ .

(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١٣٨/١ .

(٣) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبى ٦٨/١ .

من علمهم، ويستزود من معارفهم ، منهم الخلفاء الأربعة، وزيد بن ثابت وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود وغيرهم، فأدرك ما فات في صغره منهم، ولحقت به دعوة رسول الله ﷺ له : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » « اللهم آتِه الحكمة » (١).

✽ تقرّظ عمر له رضي الله عنهما :

١- « إنك لأصبح فتياننا وجهًا، وأحسنهم خلقًا ، وأفقههم في دين الله ».

٢- ذاكم فتى الكهول: « إن له لسانًا سئولًا، وقلبًا عقولًا » .

٣- يا ابن عباس : « إنها قد طرأت علينا أفضية وعضل، فأنت لها ولأمثالها » (٢).

✽ شهادة عبد الله بن مسعود :

١- « نعم ترجمان القرآن ابن عباس » .

✽ شهادة أقرانه : يقول فيه ابن عمر رضي الله عنهما :

١- « ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد » .

✽ شهادة تلاميذه (٣) :

١- روى الأعمش عن أبي وائل قال : « استخلف «علي» عبد الله بن عباس على الموسم فقرأ في خطبته سورة البقرة- أو قال : سورة النور- ففسرها تفسيرًا لو سمعته الروم، والترك ، والديلم لأسلموا.

٢- قيل لطاووس : « لزمت هذا الغلام- أي ابن عباس- وتركت أكابر الصحابة ! فقال : « إنى رأيت سبعين رجلاً من أصحاب النبي ﷺ إذا تدارعوا- أي

(١) الإتقان للسيوطي ٢٠٦/٤ . (٢) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ١/ ٦٧ .

(٣) المرجع السابق .

اختلفوا - فى أمر صاروا إلى قول ابن عباس.

٣- وقال عطاء : « ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس : أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من وادٍ واحد ».

٤- وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : « كان ابن عباس قد فات الناس بخصال : بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأي، وحلم ونسب، وتأويل، وما رأيت أحداً كان أعلم بمن سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه، ولا بقضاء أبى بكر، وعمر، وعثمان منه، ولا أفقه فى رأى منه، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه.

ولقد كان يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازى، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب، ولا رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سألته إلا وجد عنده علماً ».

فلا غرابة بعد ذلك أن يكون علم ابن عباس - رضى الله عنه - فى مقام رفيع بين أصحاب النبى ﷺ ، وأن يلقبه محمد بن الحنفية بـ « حبر الأمة » ، بعد أن دفنه بيده فى الطائف قال « مات والله اليوم حبر هذه الأمة » .

ولعل أصدق عبارة تشرح منزلة ابن عباس - رضى الله عنه - فى وضوح لا لبس فيه ولا غموض تلك الجملة الفائقة العظيمة للإمام على - كرم الله وجهه - يقرظ علم ابن عباس فى التفسير فيقول : « كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق » .

منزلة ابن عباس فى التفسير

إنك لتستطيع أن تسبين منزلة ابن عباس فيما أثر عنه من روايات توضح مدى اجتهاده فى تقريب المعنى المراد من كلام الله تعالى بقلب مؤمن، وعقل واع رشيد، وذاكرة حافظة لشعر العرب ولغاتهم .

✽ أخرج البخارى عن ابن عباس : قال : قال عمر يوماً لأصحاب النبى ﷺ : « فبمن ترون هذه الآية نزلت ﴿ أَيْدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ ^(١) . قالوا : الله أعلم، فغضب عمر، فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال

(١) البقرة : ٢٦٦ .

ابن عباس: فى نفسى منها شئ، فقال: يا ابن أخى، قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضُربت مثلاً لعمل، فقال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: لرجل يعمل بطاعة الله، ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله.

✽ وأخرج أبو نعيم فى «الحلية»^(١): أن عمر بن الخطاب جلس فى رهط من المهاجرين من الصحابة، فذكروا ليلة القدر، فتكلم كل بما عنده، فقال عمر: ما لك يا ابن عباس لا تتكلم! تكلم ولا تمنعك الحداثة، قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إن الله وتر يحب الوتر، فجعل أيام الدنيا تدور على السبع، وخلق الإنسان من سبع، وخلق فوقنا سماوات سبعاً، وخلق تحتنا أرضين سبعاً وأعطى المثانى سبعاً، ونهى فى كتابه عن نكاح الأقربين عن سبع. وقسم الميراث فى كتابه على سبع، ونقّع فى السجود من أجسامنا على سبع وطاف رسول الله ﷺ بالكعبة سبعاً، وبين الصفا والمروة سبعاً، ورمى الجمار بسبع، فأراها فى السبع الأواخر من شهر رمضان، فتعجب عمر، وقال: ما وافقنى فيها أحدٌ إلا هذا الغلام الذى لم تستو شئون رأسه، ثم قال: ياهؤلاء من يؤدىنى فى هذا كابن عباس^(٢).

✽ يقول سعيد بن جبیر: سألتى يهودى بالكوفة وأنا أجهز للحج: إنى أراك رجلاً متبع العلم، فأخبرنى أى الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حبر العرب - يعنى ابن عباس - فسأله عن ذلك، فلما قدمت مكة. سألت ابن عباس عن ذلك، وأخبرته بقول اليهودى، فقال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيبهما: إن النبى إذا وعد لم يخلف. قال سعيد: فقدمت العراق، فلقيت اليهودى فأخبرته، فقال: «صدق والذى أنزل على موسى»^(٣).

✽ وعندما يسأل عن عدد أهل الكهف فيقول: (ما يعلمهم إلا قليل) وأنا من القليل الذين يعلمون عددهم، فيقولون: وكيف، فيقول: إن الله تعالى ذكر ثلاثة أقوال لأهل الكتاب فى عددهم فوصف القولين الأولين بأنهما رجم بالغيب (أى

(١) الإتيان للسيوطى ٢٠٦/٤. (٢) الإتيان للسيوطى ٢٠٧/٤. (٣) المصدر السابق.

كذب) وسكت عن الثالث وهو أنهم سبعة والثامن كلبهم، فدل على صحته لأنه لو كان باطلاً لرده كما ردهما .

إذاً فلقد عرف كبار الصحابة منزلة ابن عباس وقيمته في التفسير لآيات الكتاب الحكيم وفي الفتيا رغم حداثة سنه بالنسبة لهم .

وهذا وحده يبين لك أن ابن عباس - رضي الله عنه - هو أساس علم تفسير القرآن الكريم بلا مرأى، - رضي الله عنه - وعن أبيه ونفعنا الله بعلمه .

أسباب نبوغ ابن عباس رضي الله عنه :

لعل من أهم الأسباب التي ساعدت على بروز العلم في شخص ابن عباس رضي الله عنه واحتلاله لمنزلة العالم الذي تتجه إليه الأنظار، وترشحه العقول للفتيا، وبيان آيات الله العزيز ترجع في مجملها إلى مجموعة من العوامل أهمها:

أولاً: بركة دعاء النبي ﷺ ^(١) . وتفصيلها بعد الإجمال الذي ذكرناه على

النحو التالي :

❖ اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل .

❖ اللهم علمه الحكمة .

❖ اللهم آتة الحكمة .

❖ اللهم بارك فيه وانشر منه .

❖ أخرج أبو نعيم في «الحلية» عن ابن عباس قال : انتهيت إلى النبي ﷺ

وعنده جبريل ، فقال جبريل : إنه كائن حبر هذه الأمة فاستوصي به خيراً ^(٢) .

❖ وأخرج عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال لي : نعم ترجمان القرآن أنت .

ثانياً : نشأته في بيت النبوة منذ عهد التمييز ووعيه للشئ الكثير في وقت مبكر

من حياته عن حياة النبي ﷺ بين أهله، وشهوده كثيراً من أحوال الوحي وهو ينزل بالقرآن .

(١) الإتيان للسيوطي ٢٠٥ / ٤ .

(٢) المصدر السابق .

ثالثاً: حرصه الشديد على ملازمة كبار الصحابة للأخذ عنهم ما فاته خاصة الأنصار، يقول ابن عباس - رضي الله عنه - : « وجدت عامة حديث رسول الله ﷺ عند الأنصار فإني كنت لآتي الرجل فأجده نائماً، لو شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي على وجهي الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف»^(١).

رابعاً : بلوغه مرتبة الاجتهاد، وعدم تخرجه منه، وشجاعته في بيان ما يعتقد أنه الحق ، وما ذلك إلا عن علم أوتي به .

خامساً: عنايته الفائقة؛ واهتمامه البالغ بلغة القرآن ، يبحث عنها في السنة العرب ولهاجتهم خاصة في دواوين الشعر القديم ، ويرى أن الشعر هو ديوان العرب وأصل لغتهم، فلا يمنعه مانع من أن يسافر في سبيل كلمة من كتاب الله تعالى غاب فهم معناها عنه. يقول : « ما كنت أعرف معنى «يحور» في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ ^(٢) حتى كنت في البادية فسمعت أعرابية تقول لابتها وقد تركت غنمهما، لماذا تركت الغنم ؟ حوري . أي ارجعي » .

أدوات التفسير عند ابن عباس ومصادره

من هذا العرض السريع تعرف قيمة ابن عباس ومنزلته في التفسير كما يمكن استخلاص أهم مصادر التفسير عند ابن عباس وأدواته في النقاط التالية :

١ - رسول الله ﷺ هو المصدر الأول لدى ابن عباس بطبيعة الحال، بحكم التربية والملازمة له في صغره .

٢ - الصحابة - رضوان الله عليهم - خاصة كبارهم والسابقين منهم إلى الإسلام وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة ، وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، ومتقدمو الأنصار.

(٢) الانشقاق : ١٤

(١) الإتقان للسيوطي ٢٠٥ / ٤ .

٣- الملكة العلمية لدى ابن عباس ، والحاسة التفسيرية، التي أدت به إلى النظر والتأمل ثم الاجتهاد وخوض غماره غير هَيَّاب .

٤- تحصنه بلغة العرب وحفظه لشعرهم ودواوينهم ساعده كل المساعدة وملَّكه أهم أداة من أدوات التفسير لكتاب الله العزيز.

حتى أن نافع بن الأزرق قال لنجدة بن عويمر - رضى الله عنهما - قم بنا إلى هذا الذى يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به فقاما إليه فقال : إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين، فقال ابن عباس: سلانى عما بدا لكما:

١- فقال نافع : أخبرنى عن قول الله تعالى : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِّينَ﴾ (١).

قال ابن عباس : العززون : الحلق الرقاق، قال : وهل تعرف العرب ذلك؟ قال : نعم أما سمعت قول عبيد بن الأبرص .

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره مزينا

٢- قال أخبرنى عن قوله : ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (٢) قال : الوسيلة :

الحاجة. قال : وهل تعرف العرب ذلك؟ قال : نعم . أما سمعت قول عنترة :

إن الرجال لهم همم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلى وتخصينى

وقد جمع السيوطى هذه الأسئلة فى حوالى مائة وتسعين سؤالاً من طريق

الطبرانى شيئاً ، ومن طريق أبى بكر بن الأنبارى وغيره شيئاً آخر (٣).

(٢) المائدة : ٣٥ .

(١) المعارج : ٣٧ .

(٣) الاتقان للسيوطى ٥٦/٢ - ٨٠ .

طرق الرواية عن ابن عباس رضى الله عنه :

يعتبر ما أثر عن ابن عباس - رضي الله عنه - في التفسير، كما هائلاً ليس له مثيل عند مفسرى الصحابة، إذ لا نكاد نجد آية من كتاب الله تعالى ليس لابن عباس فيها تفسير، مما جعل علماء الأثر يقفون موقف الارتباب من هذه الرويات ويتبعون طرقها بالنقد، وقد لخص الدكتور محمد حسين الذهبي أهم هذه الرويات فيما يأتى باختصار :

١- طريق : معاوية بن صالح، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس وهذه أجود الطرق عنها .

قال الإمام أحمد - يرحمه الله تعالى : « إن بمصر صحيفة في التفسير رواها على بن أبى طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً »^(١) .

٢- طريق : قيس بن مسلم الكوفى ، عن عطاء بن السائب، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس .

وهذه الطريقة صحيحة على شرط الشيخين، ويخرج منها الفريابي كثيراً والحاكم فى مستدركه .

٣- طريق : ابن إسحاق - صاحب السير - عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة - أو سعيد بن جبير - عن ابن عباس .

وهى طريقة جيدة وإسنادها حسن، خرج منها ابن جرير، وابن أبى حاتم والطبرانى فى المعجم الكبير .

٤- طريق : إسماعيل بن عبد الرحمن (السدى الكبير) تارة عن أبى مالك ،

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٧٧ - ٨١ (٢) .

ونارة عن أبي صالح عن ابن عباس .

والسدي : مختلف فيه، وفيه تشيع لم يخرج منه ابن أبي حاتم وخرج له ابن جرير .

٥- طريق عبد الملك بن جريج، عن ابن عباس .

وهذه الطريقة فيها الصحيح والسقيم، وتحتاج إلى دراية وحنكة في معرفة الجرح والتعديل لمن يأخذ منها (١).

٦- طريق: الضحاك بن مزاحم الهلالي، عن ابن عباس رضي الله عنه، وهي طريقة منقطعة لأن الضحاك روى عن ابن عباس ولم يلقه، وهي مرضية في إجمالها، ومن أي طرقها.

٧- طريق: عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنه.

وهي غير مرضية أيضاً لضعف عطية، وإن خرج منها ابن جرير، وابن أبي حاتم كثيراً.

٨- طريق: مقاتل بن أبي سليمان الأزدي الخراساني.

وهو الذي قال فيه الشافعي: «الناس عيال على مقاتل في التفسير».

ومع ذلك ضعفه علماء الفن، وكذبه غير واحد، واشتهر عنه التجسيم والتشبيه.

٩- طريق: محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس - رضي

الله عنه - وهذه أوهى طرق الرواية عن ابن عباس رضي الله عنه.

وإن كان تفسير ابن السائب أطول وأشيع التفاسير، ويروي عنه محمد ابن

(١) الإنفاق للسيوطي ٤ / ٢٠٧.

مروان (السُّدى الصغير)، فإذا انضم هذا إلى ابن السائب فإن هذه سلسلة الكذابين.

المطاعن

لم يسلم ابن عباس - رضى الله عنه - من نقد اجتهاده لا فى حياته، ولا بعد وفاته؛ أما فى حياته فقد كان عبد الله بن عمر يلوم جرأته فى التفسير، وأما بعد مماته فإن كثيراً من المحدثين سواء كانوا من الغربيين أو المستغربين، ما زلنا نجد لهم نقداً عليه.

وهذا بطبيعة الحال قدر المجتهدين، ونصيب المجدين، وحظ النابهين أما نقد ابن عمر فقد كان نقداً شريفاً عفيفاً طابعه الورع وعدم التقول على الله والخوف على ابن عباس منه، فلما عرف ابن عمر أن ابن عباس لا يتجرأ على التفسير إلا عن علم صدع له بالحق.

يروى أن رجلاً جاء إلى ابن عمر وسأله عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (١). فقال: «أذهب إلى ابن عباس، ثم تعال أخبرنى: فذهب، فسأله، قال ابن عباس - رضى الله عنه: «كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات».

فرجع الرجل إلى ابن عمر، فأخبره، فقال: «قد كنت أقول: ما يعجبني جرأة ابن

(١) الأنبياء: ٣٠.

عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتي علماً» (١).

أما نقد غير ابن عمر، فلن نقف عنده طويلاً، ونحيل الطالب إلى مظانه حتى لا يطول الكلام عن المنهج المحدد (٢).

(٢)

عبد الله بن مسعود

- رضى الله عنه -

التعريف به:

* هو: عبد الله بن مسعود بن غافل: أبو عبد الرحمن المضرى، الشهير بـ «ابن أم عبد» نسبة إلى أمه: أم عبد بنت عبدود الهذلية.

* كان - رضى الله عنه - قصيراً، نحيفاً، خفيف اللحم، شديد الأدمة.

* سادس من أسلم، وأول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشاً بعد رسول الله ﷺ.

* كان فى خدمة رسول الله ﷺ فى أكثر شئونه: فهو صاحب طهوره وسواكه، ونعله، يلبسه إياه إذا قام، ويخلعه ويحمله فى يده إذا جلس، ويمشى أمامه إذا سار، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلج عليه داره بغير حجاب، حتى ظن من رآه لأول مرة، أنه من أهل بيت رسول الله ﷺ.

* هاجر الهجرتين، وصلى القبلتين، وشهد مع رسول الله ﷺ سائر المشاهد بدرأ، وأحداً، والخندق، وبيعة الرضوان، كما شهد اليرموك بعد وفاة رسول الله ﷺ، وهو الذى أجهز على أبى جهل يوم بدر.

(١) الإتيان للسيوطى ٤ / ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) راجع التفسير والمفسرون للذهبي، وراجع لغيره أيضاً.

❖ شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، وشهد له بالفضل.

أخرج أحمد في مسنده عن عليّ - كرم الله وجهه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كنت مؤمراً أحداً دون مشورة المؤمنين لأمرت ابن أم عبد».

❖ ولى بيت مال الكوفة لعمر، وعثمان رضى الله عنهما.

❖ مات بالمدينة ودفن في البقيع سنة (٣٢هـ) وعمره بضع وستون سنة (١).

منزلته في العلم:

❖ كان ابن مسعود - رضى الله عنه - من أحفظ الصحابة لكتاب الله تعالى.

❖ وكان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع القرآن منه.

يقول ابن مسعود: قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ علىّ سورة النساء» قال: قلت أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمع من غيرى، فقرأت عليه، حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ (٢). فاضت عيناه ﷺ.

❖ كان ابن مسعود يعرف لنفسه حقها، ويعتز بعلمه حتى إنه كان يرى أنه أحق من زيد بن ثابت في نسخ المصاحف في عهد عثمان وأنه أولى بالقيام بهذا الشأن منه وله في ذلك تلك الصيحة المجلجلة في الناس: «يا معشر المسلمين.. أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر»؟!

يريد زيد بن ثابت .

❖ قيل لحذيفة أخبرنا برجل قريب السميت، والدُّلُّ، والهدى من رسول الله ﷺ،

(١) بتصرف عن: التفسير والمفسرون للدكتور/ محمد حسين الذهبي ١/ ٨٣ - ٨٨.

(٢- النساء: ٤١ .

نأخذ عنه، فقال: «لا نعلم أحداً أقرب سمياً ولا هدياً برسول الله ﷺ من ابن أم عبد، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة» (١).

✽ كتب أمير المؤمنين عمر كتاباً إلى أهل الكوفة يقول لهم فيه: «إني قد بعثت عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر فاقتدوا بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي».

✽ وقال مسروق رضى الله عنه: «انتهى علم أصحاب رسول الله ﷺ إلى ستة: عمر، وعليّ، وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب، وأبى الدرداء، وزيد بن ثابت، ثم انتهى علم هؤلاء الستة إلى رجلين: عليّ، وعبد الله» (٢).

✽ لما دخل عليّ الكوفة حضر عنده ناس من أهلها، وذكروا بين يديه عبد الله بن مسعود وقالوا: «يا أمير المؤمنين ما رأينا رجلاً أحسن خلقاً، ولا أرفق تعليماً، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعاً من ابن مسعود»، قال عليّ: أنشدكم الله، أو الصدق من قلوبكم؟ قالوا: نعم. قال: اللهم أشهد أنى أقول مثل ما قالوا وأفضل» (٣).

✽ أقام ابن مسعود فى الكوفة ما يشاء الله له أن يقيم يعلم أهلها الحديث، والتفسير، والفقه، وأسس فى الكوفة علم أهل الراى حيث كان لا يتردد فى أن يبدى رأيه فى الوقائع النازلة عندما لا يجد نصاً بين يديه، ولقد نشأت مدرسة الراى على يديه وامتدت حتى ذاع صيتها فى منتصف القرن الثانى الهجرى على

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٢٥٨/٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

يد أبى حنيفة وأصحابه ويعد عبد الله بن مسعود أساس هذا المذهب.

منزلة ابن مسعود فى التفسير:

* تظهر منزلة ابن مسعود التفسيرية فى تقديمه لنفسه، وفى ثناء أصحاب رسول الله ﷺ على مكانته ومنزلته فى العلم، وفى تقديم هذه الشهادات سواء كانت على لسان ابن مسعود نفسه باعتباره كلاماً حقيقياً بعيداً عن الفخر والخيلاء، أو كانت على لسان بعض أصحاب رسول الله ﷺ.

أ - يقول ابن مسعود - رضى الله عنه - عن نفسه لما بلغه تحريق عثمان - رضى الله عنه - للمصاحف: « لقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله - وما أنا بخيرهم - ولو أنى أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته ».

قال أبو وائل: « فقممت إلى الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت أحداً من أصحاب محمد ينكر ذلك عليه ».

* ويقول ابن مسعود - رضى الله عنه: « أخذت من فى رسول الله ﷺ سبعين سورة ». ويقول: « والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته » (١).

هذه شهادة ابن مسعود على نفسه وهى شهادة ما قصد بها التباهى والتعالى، وإنما قصد بها البيان، والإيضاح أن ما عنده من علم رسول الله ﷺ أحق وأسرع أن يحمل عنه، حتى لا يضيع بذهابه.

ب - أما شهادة أصحاب رسول الله ﷺ، وتلاميذه فمنها:

(١) الإنقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٠٤ / ٤.

❖ روى أبو نعيم في «حلية العلماء» عن أبي البحتري قال: قالوا لعلنا أخبرنا عن ابن مسعود، قال: «علم القرآن والسنة ثم انتهى، وكفى بذلك علماً»^(١).

❖ وقال عقبة بن عامر - رضى الله عنه: «ما أدري أحداً أعلم منه بما نزل على محمد بن عبد الله، فقال أبو موسى: إن ثقل ذلك، فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل».

❖ وقال تلميذه مسروق: «كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها، ويفسرها عامة النهار».

مرويات ابن مسعود ومبلغها من الصحة^(٢) :

إن الحكم على مرويات ابن مسعود بالصحة والسلامة، أو بالضعف والسقم ليس بالنظر إلى ابن مسعود نفسه، وإنما بالنظر إلى من روى عنه بطبيعة الحال. ولقد حصر الدكتور/ محمد حسين الذهبي مرويات ابن مسعود في خمسة طرق سلم منها أربعة طرق كاملة، فكان حظه في تلاميذه، ونقلة علمه أكثر من ابن عباس - رضى الله عنه - وقد سبق أن عرفنا أن مرويات ابن عباس لا يكاد يسلم منها أكثر من طريقتين، والضعف في أكثر مرويات ابن عباس في التفسير كانت في نقلة علمه كما عرفت.

ونقدم بين يديك طرق الرواية عن ابن مسعود فيما يأتي:

١ - طريق الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود.

(١) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ٢٠٥ / ٤.

(٢) عن التفسير والنسب للدكتور الذهبي ٨٧ / ١ بتصرف.

٢ - طريق مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود.

٣ - طريق الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود.

٤ - طريق السُّدِّي الكبير، عن مرة الهمداني، عن ابن مسعود.

٥ - طريق أبي روق عن الضحاك، عن ابن مسعود.

أما الطرق الثلاثة الأولى فقد اعتمدها البخاري في صحيحه.

وأما طريق السُّدِّي الكبير (إسماعيل بن عبد الرحمن) فحديثه عند مسلم وأصحاب السنن الأربعة، وقد جمع من الأئمة فيهم: شعبة، الثوري^(١).

وأما الطريق الخامس: عن الضحاك، عن ابن مسعود، فقد حكم عليه العلماء بالانقطاع لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود برحمهما الله تعالى.

وهكذا بعد أن قدمنا بين يديك ثانی أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ من عُلُمُوا الكتاب والحكمة، وعكفوا على تفسير آيات الله، وكانوا أقرب إلى تأدية مراد الله تعالى ممن جاء بعدهم، فنهلنا الأجيال من فيض معينهم، وغزير ما أعطوا من فقه الوحي فبنوا هذا العلم - علم التفسير - وأقاموه على أعمدة صحيحة راسخة، أشهر بناتها ابن مسعود فحق لنا أن نحضر اسمه في ذاكرتنا وذاكرة التاريخ لعلم التفسير، وأن نقول بحق ما قاله المغبطون لعلمه وقربه من المعصوم - صلوات الله وسلامه عليه: «كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل».

(١) التفسير والمفسرون ٨٨/١ بتصرف.

(٣)

علي بن أبي طالب «كرم الله وجهه»

مكانته في العلم بصفة عامة:

لا يستطيع أحد أن ينكر على آخر الراشدين علي بن أبي طالب، ابن عم رسول الله ﷺ، وصهره، وأول من أسلم من الأحداث، وشهد المشاهد كلها، ومن آخاه رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة. لا أحد ينكر سعة علمه، وقوة حجته، وسلامة استنباطه، ونضج عقله، ورجاحة قضائه. فكما كان ابن عباس - رضى الله عنه - مرجع الصحابة في التفسير، كان علي - كرم الله وجهه - مرجعهم في القضايا المعضلة.

وكما كان تفسير ابن عباس بركة دعوة رسول رب العالمين، كان «قضاء علي» وهدي قلبه فيه دعوة رسول رب العالمين كذلك. قال النبي ﷺ فيه: «اللهم ثبت لسانه، واهد قلبه». «أنت أخي في الدنيا والآخرة». «لأعطين الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. ثم أعطاها علياً». ولأه رسول الله ﷺ قضاء اليمن، فأوفى وأجاد، ورجع إليه الصحابة في معضلات أمور القضاء حتى صار يضرب به المثل فيقال: «قضية ولا أبا حسن لها»^(١).

مكانته في التفسير بصفة خاصة:

قدمنا أن مفسري الصحابة كانوا لا يزيدون على ستة عشر صحابياً من بينهم أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - وأن المشهورين منهم عشرة، والمكثرون من العشرة أربعة.

(١) أمد الغابة لابن الأثير ٢٨/٤ بتصرف.

فاعلم أن علياً - كرم الله وجهه - ثالث الأربعة في ترتيب المكثرين . وقد جمع - كرم الله وجهه - إلى جانب مهارتي القضاء والفتيا العلم بالقرآن بشهادته عن نفسه، وشهادة علماء الصحابة - خاصة المفسرين منهم - عنه . أما شهادته عن نفسه فيقول: «سلوني، فوالله لا تسألونني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم: أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل» .

وأخرج أبو نعيم في «الحلية» عنه: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وإن ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً سؤللاً»^(١) .

وأما شهادة علماء الصحابة له: قال فيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده منه الظاهر والباطن»^(٢) .

مرويات علي - كرم الله وجهه - ومدى صحتها؛

لو أننا نظرنا بمنظار غير منظار الثبت من العلم لوضعنا «علياً» - كرم الله وجهه - قبل ابن عباس في كثرة ما روى عنهما من تفسير . فقد بلغ ما روى عن علي - كرم الله وجهه - حداً من الكثرة لا تليق بوضعه في المرتبة الثالثة بين المكثرين، ولكن النظرة الموضوعية العلمية التي جعلت الباحثين يضعون الإمام علياً في المرتبة الثالثة هي النظر فقط إلى ما صَحَّ من الروايات عنه، وإلا فإن المغالين الذين أسرفوا في حبهم له، هم السبب في اختلاق أكثر الروايات التي نسبت إليه في التفسير مما جعل القيمة العلمية لهذه الروايات لا ترتقي إلى مرتبة الوثوق بها .

ولذلك يقول الدكتور محمد حسين الذهبي: «لم يعتمد أصحاب الصحيح فيما

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٨٩ - ٩١ .

(٢) المصدر السابق .

يروونه عنه إلا على ما كان من طرق الإثبات من أهل بيته، أو من أصحاب ابن مسعود، كعبدة السلماني، وشريح وغيرهما .

وأهم هذه الطرق هي :

- ١ - طريق: هشام، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلماني، عن عليّ - كرم الله وجهه - طريق صحيح يخرج منه البخاري وغيره.
- ٢ - طريق: ابن أبي الحسين، عن أبي الطفيل، عن عليّ - كرم الله وجهه - وهذا الطريق غالب ما عند سنيان بن عينة في تفسيره، وهو صحيح أيضاً.
- ٣ - طريق الزهري، عن عليّ زين العابدين، عن أبيه الحسين، عن جده عليّ . وهذه أصح الطرق، بل جدها البعض أصح الأسانيد مطلقاً .

(٤)

أبى بن كعب
رضي الله عنه .

تعريفه: هو أبى بن كعب بن قيس الأنصاري، الخزرجي . كناه النبي ﷺ بـ «أبي المنذر» وكناه عمر - رضي الله عنه - بـ «أبي الطفيل» أحد السابقين من بني النجار إلى الإسلام، المسارعين لقبوله: قبله الله ورضي عنه، وتقبل منه . شهيد بدرًا ، والعتبة . أول من كتب لرسول الله ﷺ مقدمة المدينة . مات في خلافة عمر - رضي الله عنه - وعنه . قال فيه عمر: «أبى سيّد المسلمين» .

مكانته في العلم بصفة عامة:

كان - رضي الله عنه - أحد كُتّاب الوحي، وأحد الحفاظ لكتاب الله العزيز،

وأحد المشهورين من القراء في الإسلام. سماه الله نبيه وطلب من نبيه ﷺ أن يقرأ عليه القرآن.

فقد أخرج الترمذي عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: «إن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ولم يكن الذين كفروا». قال أبي: الله سماني لك؟ قال: نعم، فجعل أبي يكي. ف قيل له: وفرحت بذلك؟ قال: وما يمنعني وهو القائل ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ (١).

ونقل ابن الأثير من رواية الشعبي عن مسروق قال: «كان أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله ﷺ ستة: عمر، علي، عبد الله، أبي، زيد، وأبو موسى» (٢).

مكانة أبي - رضى الله عنه - في التفسير خاصة:

سبق أن علمت في ما قدمناه أن أبي بن كعب أنه رابع الأربعة المكثرين من صحابة رسول الله ﷺ، ولا غرابة في ذلك، فهو كاتب الوحي بيده، وأكثر الصحابة علماً بجودة قراءته، ومن الحفظة المعدودين. وهذه الأدوات الهامة جعلته أهلاً للعلم بالتفسير وروايته. وأخذ التفسير على يديه جمهرة من الصحابة من أمثال ابن عباس، وابن عمر - رضى الله عنهما - كما أنه يعتبر مرجعاً هاماً للصحابة.. لذلك فإن ما يصل إلى يديك من تفسير أبي إذا صححت الرواية عنه له قيمة علمية على جانب عظيم من الأهمية.

أشهر طرق الرواية عنه:

١ - طريق: أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي -

(١) التفسير والمفسرون لمحمد حنين الذهبي ٩١/١ بتصرف.

رضى الله عنه. وهذا طريق صحيح، أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، والإمام أحمد عنه الكثير (١).

٢ - طريق: وكيع، عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبيّ بن كعب عن أبيه. وهذا الطريق على شرط الحسن، يخرج منه الإمام أحمد في مسنده. وإن كان فيه عبد الله بن محمد بن عقيل، صدوق تكلم فيه البعض.

مطلب في قيمة التفسير المأثور عن الصحابة رضي الله عنهم

لا شك أن الصحابة العشرة الذين اشتهروا بتفسير القرآن الكريم هم الذين أرسوا قواعد علم التفسير، وأقاموا دعائمه باعتبار أنهم المصدر الأول الذي شاهد الوحي، وعاصر التنزيل، هم بهذا أصل هذا العلم وحملته، وكلامهم فيه مرده إلى المعصوم ﷺ.

وعلى هذا الأساس فقد اهتم العلماء اهتماماً كبيراً «بمأثورات» الصحابة المفسرين خاصة الكثيرين منهم في الرواية عن النبي ﷺ، أو باجتهادهم باعتبار أن من عني منهم بتفسير القرآن الكريم هم من اهتموا بجمعه، وحفظه، ومعرفة أسباب نزوله، وناسخه ومنسوخه، وحلاله وحرامه وأوجه قراءاته ممن تناولناهم بالدراسة السابقة وهم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبيّ بن كعب - رضي الله عنهم جميعاً.

ونظراً إلى أن تفسير هؤلاء الأئمة الكبار منه ما يعود إلى أسباب النزول ومنه ما يعود إلى اجتهاد مفسري الصحابة لذلك نرى أن العلماء انقسمت نظرتهم إلى قيمة التفسير المنقول عن الصحابة على ما يأتي:

١ - يرى الحاكم النيسابوري أن تفسير الصحابي الذي شاهد الوحي، وعاصر التنزيل له حكم الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ، وهو بهذا ينقل عن البخاري ومسلم ما ذكراه.

(١) اسد الغابة لابن الأثير ١ / ٥٠ .

يقول الحاكم: «ليعلم طالب الحديث أن تفسير الصحابي الذي شاهد الوحي والتنزيل - عند الشيخين - حديث مسند» (١).

أما اعتبار الحاكم بأن تفسير الصحابي له حكم الحديث المرفوع فهو اعتبار «مطلق وعام». إذ لا يخلو تفسير الصحابي من الاجتهاد برأيه - وإن قل - في زمانهم، لكنه كان موجوداً وبارزاً خاصة في ما نقله الرواة من تفسير ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما.

ولهذا نرى ابن الصلاح صاحب المقدمة المشهورة في علم الحديث يقيد هذا العموم والإطلاق بما إذا كان المأثور عن الصحابة متعلقاً بسبب نزول، أو برواية يسندها الصحابي إلى المعصوم ﷺ.

يقول ابن الصلاح: «ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند، فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي، أو نحو ذلك لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي، ولا مدخل للرأي فيه كقول جابر - رضي الله عنه: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله - عز وجل - ﴿نساؤكم حرث لكم﴾» (٢) فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشتمل على إضافة شيء إلى الرسول ﷺ فمعدودة في الموقوفات (٣) ومن هنا نرى أن تفسير الصحابي نوعان:

١ - نوع موقوف على الصحابي، وهو ما يتعلق باجتهاده في تفسير النص القرآني.

٢ - ونوع مرفوع إلى النبي ﷺ يسنده الصحابي، أو له حكم المرفوع كذكر سبب النزول.

(١) تدريب الراوي للبيهقي ص ٦٤. (٢) البقرة: ٢٢٣. (٣) تدريب الراوي ص ٦٤.

أما النوع الأول: فقد اختلف العلماء في حكم الأخذ به، والرجوع إليه وعدم العدول عنه إلى غيره إلى رأيين:

أ - ذهب فريق إلى أن الموقوف على الصحابي لا يجب الأخذ به، ويمكن العدول عنه إلى رأى مجتهد آخر، لأن الصحابي في قوله الخاص غير المسند إلى رسول الله ﷺ مجتهد كسائر المجتهدين فلنا أن نأخذ به، أو بقول مجتهد آخر غيره، لأن كليهما يخطيء ويصيب .

ب - وذهب آخرون إلى أن «موقوف الصحابي» لا يعدل عنه إلى غيره، ويجب الأخذ به لظن سماعهم له من رسول الله ﷺ، ولأنهم حتى وإن فسروا القرآن بأرائهم واجتهاداتهم الشخصية فأراؤهم أقرب إلى الصواب ممن بعدهم، فهم أدرى الناس وأعلم بكتاب الله - تعالى - باعتبارات كثيرة منها أنهم: أهل اللسان، وصحبهم لرسول الله ﷺ وتخلطهم بأخلاقه، ولما لهم من العلم الصحيح والثبوت الدقيق لا سيما علماؤهم وقراؤهم، ومنها أنهم شاهدوا نزول القرآن ووعوا أسبابه فيم نزل، وفي أى شيء، ومتى.

حتى قال السيوطي في الإثنان: «اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد.

والأول: إما أن يرد عن النبي ﷺ، أو الصحابة، أو رءوس التابعين. فالأول: يبحث فيه عن صحة السند، والثاني: ينظر في تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه»^(١).

ولقد وضَّح العلامة ابن كثير في مقدمة «تفسير القرآن العظيم» هذا المعنى

(١) الإثنان في علوم القرآن للسيوطي ١٨٣/٢ .

بجلاء ووضوح وبين أهمية تفسير الصحابي، وقيمتها العلمية فقال وهو يعدد أوليات هذه الأهمية:

من حيث ترتيب مصادر هذه الأقوال: «إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدري بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختلفوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم».

وأما النوع الثاني: فمجمع على وجوب الأخذ به وعدم العدول عنه إلى اجتهد من بعده.

مطلب في: خصائص تفسير الصحابة، ومميزاته

١ - لم يكن التفسير في هذا العهد تفسيراً مكتوباً، ولا مدوناً، وإنما كان شأنه شأن علم الحديث. والسبب في ذلك أن الأمة كلها في هذه الفترة اعتمدت على نقل علمها رواية ومشافهة، لا تدويناً ولا كتابة لوجود النهي الصارم عن تدوين غير القرآن خوف إلباسه بما ليس منه لقوله ﷺ: «لا تكتبوا عني شيئاً ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه» اللهم إلا ما كان ينقله البعض من الحفاظ والمفسرين على هوامش مصاحفهم من أوجه القرآن ولغاته فظنوها المتأخرون عنهم أنها من تفاسيرهم.

٢ - لم يأخذ التفسير شكلاً منتظماً يتماشى مع ترتيب السور، أو حتى ترتيب آيات السورة الواحدة.

٣ - لم يستقص أي مفسر من كبار مفسري الصحابة ومكثريهم جميع آيات القرآن الكريم، وإنما فسروا فقط ما غمض فهمه على الناس، أو ما عرفوا له أسباباً

للنزول، أو ما كان جواباً نزل به الوحي لسؤال سائل.

٤ - اتفاق جيلهم على الفهم العام لمعظم آيات القرآن باعتبار معاشتهم لنزوله، وعدم اختلاف مفسريهم إلا في النادر القليل.

٥ - قلة الاستنباط الفقهي لقلة الحوادث والواقعات والمستجدات.

٦ - الاقتصار على التفسير لغريب الألفاظ التي كانت تغيب على معرفة البعض منهم لكونه على لغات قبيلة دون أخرى مثلاً.

تلكم هي المرحلة الأساسية في بيان مراد كلام الله - تعالى - وهي مرحلة كريمة لها طابع نوراني لم تشبها شوائب عقلية، ولا إحن مذهبية.. لك أن تسميها باسم المرحلة الأولى في التفسير، ولك أن تسميها باسم الصحابة رضوان الله عليهم... المهم عندنا أن مصدرها نبع صاف.. وموردها صاحب كريم.

مبحث في: التفسير في عصر التابعين ومدارسه

تمهيد: بدأت الفتوحات الإسلامية في أواخر عهد النبي ﷺ، ثم بدأت تتسع شرقاً، وشمالاً، وغرباً، حتى أتت على مملكة كسرى، والروم، ومصر، وما لبث الجهاد أن حمل الصحابة - رضوان الله عليهم - إلى كل هذه البلدان واستقر العديد منهم فيها، والتف الناس حولهم متشوقين إلى هؤلاء النفر الكرام البررة الذين رأوا النبي ﷺ، وعاصروا الوحي، ونالوا شرف القتال في الغزوات الكبرى.

ومع ذلك فقد تفرغ منهم للعلم في موطن الوحي عبد الله بن عباس في مكة، وأبى بن كعب في المدينة فلم يشأ كل منهما أن يغادر موطنه الذي ولد فيه فنشأت على أكتافهما مدارس التفسير في الحرمين الشريفين. بينما استقر على ومن قبله ابن مسعود في العراق فقامت بهما مدارس التفسير فيه.

مطلب تهيدى فى :مدارس التفسير فى عصر التابعين

وبذلك شاءت إرادة الله - سبحانه وتعالى - إلا أن تقوم على عاتق المشاهير الأربعة أهم مدارس التفسير، وأن يكون حظ التابعين من علمهم الحظ الوفور، وأن تمتد بهم فى أشخاص تلاميذهم السمة الأساسية لتفسير كتاب الله العزيز.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كلمة «مدرسة هنا» لا تعنى بناء خاصًا لتلقى علم التفسير كما هو الحال فى زماننا، ولكنه تعبير تجاوزى عن بداية الاستقرار لتلقى العلم فى مكان ما.. ليكن المسجد، وليكن السؤال فى الطريق العام من التلميذ للأستاذ أيا ما كان فقد أصبح لابن عباس تلاميذه من التابعين فى مكة .

وكذلك لأبى تلاميذه من التابعين فى المدينة، ولعلّى وابن مسعود تلاميذهما فى العراق.

ولنلق ضوءاً بسيطاً على كل مدرسة وأشهر تلاميذها باختصار شديد.

١. المدرسة المكية فى التفسير وأشهر تلاميذها:

شيخها: عبد الله بن عباس - رضى الله عنه - وقد سبق لك أن عرفت قيمته ومنزلته العلمية، وأدواته ومصادره فى التفسير.

تلاميذها : وقد أخذ عن ابن عباس علمه فى مكة ثلثة من التابعين أشهرهم:

١ - سعيد بن جبير بن هشام الأسدى: أبو محمد، حبشى الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال، أخذ عن ابن عباس - رضى الله عنهما - القراءة والتفسير، وهو ثقة حجة.

٢ - مجاهد بن جبير: أبو الحجاج المخزومى، أوثق تلاميذ ابن عباس - رضى الله عنهما - من القراء المشهورين، توفى بمكة سنة ١٠٤ هـ وهو ساجد.

٣ - عكرمة (مولى ابن عباس) أبو عبد الله البربرى المدنى، أصله من البربر بالمغرب. كان جريئاً على العلم، ولذلك توقف بعض العلماء عن توثيقه، ومع ذلك فعكرمة - يرحمه الله - لم يثبت عليه شيء يلام عليه، وقد فند مطاعن الطاعنين عليه الشيخ محمد حسين الذهبى فلتراجعه هناك^(١). وتوفى - رحمه الله - سنة ١٠٤ هـ.

٤ - طاووس بن كيسان اليمانى الحميرى. أبو عبد الرحمن. كان على جانب عظيم من الورع والتقوى حتى صار شيخ اليمن، جالس أكثر من خمسين صحابياً، وكان خيراً متقناً لمعانى كتاب الله تعالى، توفى سنة ١٠٦ هـ بمكة المكرمة أثناء حجه إليها من اليمن.

٥ - عطاء بن أبى رباح المكى القرشى: أبو محمد، توفى سنة ١١٤ هـ. كان من سادات التابعين فقهياً وعلماً، وورعاً، وفضلاً زينه الله بالعلم ونوره بالورع، وأفاض عليه من نوره مع أنه كان - يرحمه الله - أسود، أعور، أقطس، أشل، أعرج، ثم عمى بعد ذلك، فأنا يدانيه من أحد؟

٢. المدرسة المدنية فى التفسير، وأشهر تلاميذها:

شيخها: أبى بن كعب بن قيس الأنصارى من السابقين للإسلام من بنى النجار، ومن السابقين فى خدمة رسول الله ﷺ وخدمة القرآن، كسابة، وحفظاً، وعلماً بقراءاته.

تلاميذها: حمل علم أبى - رضى الله عنه - فى المدينة أناس كثيرون من التابعين كان من أشهرهم:

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١١٠.

١ - أبو العالية: رفيع بن مهران الرياحي. أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ بسنتين وهو من ثقات التابعين المشهورين في التفسير، ونسخة كبيرة من تفسير أبي بن كعب - رضى الله عنه - يرويهها أبو العالية، وأخرج منها الأئمة في تفاسيرهم، مات - يرحمه الله تعالى - سنة ٩٠ هـ.

٢ - محمد بن كعب بن سليم القرظي، المدني: أبو حمزة من حلفاء الأوس. روايته عن أبي بن كعب بالواسطة، لكنه اشتهر بالثقة، والعدالة، والورع وكان من أفاضل أهل المدينة علماً بالقرآن، توفي سنة ١١٨ هـ.

٢ - زيد بن أسلم العدوي المدني: أبو أسامة. اشتهر عنه التفسير بالرأى دون تخرج، ولكنه كان ثقة، لم ينسبه أحد إلى مذهب من المذاهب المبتدعة، وكان من أشهر من تلقى علم زيد بن أسلم: مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وابنه عبد الرحمن بن زيد، توفي - يرحمه الله تعالى - سنة ١٣٦ هـ تقريباً.

٣. المدرسة العراقية وأشهر تلاميذها:

شيخها: عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه. والواقع: أن علياً - كرم الله وجهه - وكذلك كثير من الصحابة يعدون من شيوخ هذه المدرسة حيث تلقى أهل العراق العلم عنهم جميعاً. غير أن أحداً منهم لا ينازع عبد الله بن مسعود في مشيخة هذه المدرسة لاعتبارات أهمها:

١ - شهرة ابن مسعود في القراءات والتفسير.

٢ - تعيينه رسمياً من قبل الخليفة الثاني عمر - رضى الله عنه - ليكون معلم أهل الكوفة ووزير أميرها عمار بن ياسر مما جعل الكوفيين يجلسون إليه ويأخذون عنه أكثر من غيره من الصحابة - رضوان الله عليهم. حتى أن العلماء يقولون بأن ابن مسعود هو الذي أسس «الرأى» في مسائل الخلاف وهو الذي وضع الأساس لهذه

الطريقة في الاستدلال، والتي اشتهر بها أهل العراق فيما بعد. ومن المرجح أن تؤثر هذه الطريقة في ظهور تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد والرأى خاصة في استنباط المسائل الشرعية للواقعات المستجدة في عصورهم كنتيجة طبيعية من نتائج أعمال الرأى في فهم النصوص الشرعية من القرآن والسنة.

تلاميذها: تتلمذ على ابن مسعود - رضى الله عنه - عدد كبير من التابعين - من أهل العراق فحملوا عنه علماً كثيراً، كان من أشهرهم:

١ - علقمة بن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي. أشهر من روى عن ابن مسعود، وأعلمهم بعلمه على الإطلاق، كان ثقة، مأموناً، حتى قال فيه مرة الهمداني: «كان علقمة من الربانيين». مات وعمره تسعون سنة في «٦١هـ».

٢ - مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الكوفي: أبو عائشة. قيل: سُمي مسروق، لأنه سُرِق في صغره ثم وُجد. كان من أعلم تلاميذ ابن مسعود، وكان شريح القاضي يستشير في معضلات المسائل، امتاز بورعه، وعلمه، وعدالته، وكانت وفاته سنة «٦٣هـ».

٣ - الأسود بن يزيد بن قيس النخعي: أبو عبد الرحمن، المتوفى سنة «٧٤هـ» بالكوفة. كان من كبار التابعين، وثقاتهم، على جانب عظيم من فهم كتاب الله وكان من صوَّام الدهر معدود في أصحاب ابن مسعود بالافتاء.

٤ - مرة بن شراحيل الهمداني، الكوفي العابد، الملقب بـ «مرة الخير». و «مرة الطيب» لكثرة صلاحه، وشدة روعه. سجد «مرة» حتى أكل التراب وجهه، وكان يصلى كل يوم ستمائة ركعة. توفى سنة «٧٦هـ»^(١).

(١) تهذيب التهذيب ١٠/٨٨-٨٩.

٥ - عامر الشعبي: عامر بن شراحيل الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل، قاضي الكوفة، سمع من ثمانية وأربعين صحابياً. يقول عنه ابن سيرين: «قدمت الكوفة وللشعبي حلقة، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ كثير». كان فقيهاً، شاعراً، ثقة، وكان يقال عنه: «ابن عباس في زمانه».

٦ - الحسن البصري: الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، مولى الأنصار كان غزير العلم بكتاب الله، جامعاً، عالماً، فقيهاً، ثقة، مأموناً، قال فيه أبو جعفر الباقر: «ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء»^(١).

٧ - قتادة بن دعامة السدوسي: أبو الخطاب الأكمه، عربي الأصل، سكن البر. كان واسع الاطلاع في الشعر العربي، بصيراً بأيام العرب، عليمًا بأنسائهم وكان ثقة، مأموناً، وكان من علماء الناس بالقرآن والفقه، ومن حفاظ زمانه.

مطلب في قيمة التفسير المأثور عن التابعين

اختلف علماء الأمة في قبول «رأي» التابعي في التفسير، ومدى الالتزام به، إذا كان هذا قولاً مستقلاً له موقوفاً عليه غير مسند إلى صحابي، أو غير مرفوع إلى النبي ﷺ. وهم في ذلك على رأيين:

الأول: أن قول التابعي ورأيه الشخصي في التفسير، هو كقول آحاد الناس غير ملزم بقبوله وللأمة أن تأخذ به أو تأخذ برأي مجتهد سواه في عصره أو بعد عصره وذلك للأسباب الآتية:

١ - أن التابعي (في رأيه الشخصي) ليس له سماع من النبي ﷺ، ولا من الصحابي حتى تلتزم الأمة رأيه.

(١) تهذيب التهذيب ١٠/٨٨-٨٩.

٢ - أن التابعي (في رأيه الشخصي) شأنه شأن غيره من قبله ومن بعده لم يرث التراثن التي نزل عليها الوحي، فيجوز عليه الخطأ - كما يجوز على غيره - في فهم المراد، وظن ما ليس بدليل دليلاً.

٣ - أن التابعي لم تُنصّ على عدالته. كما نُصّ علينا بالنسبة للصحابة.

٤ - أن جميع مجتهدي الأمة (من التابعين وأتباعهم) نصوا على ذلك، ولكل من الأئمة الأربعة مقالة مشهورة عنه تصحح كدليل لهذا الرأي.

أ - يقول أبو حنيفة - يرحمه الله تعالى: «ما جاء عن النبي ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا. وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال».

ب - ويقول مالك - يرحمه الله تعالى: «كل منا يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر» مشيراً إلى قبر النبي ﷺ.

ج - ويقول الشافعي - يرحمه الله تعالى: «إذا رأيت قولي يخالف قول رسول الله ﷺ فاضرب بقولي عرض الحائط».

د - ويقول أحمد بن حنبل - يرحمه الله تعالى: «إذا صح الحديث فهو مذهبي» فتد قال هؤلاء الأئمة كلمة الفصل في هذه المسألة وهي أن قول التابعي «الخاص» غير واجب الأخذ به في ما يفسره من آيات الله تعالى. وشأنه في ذلك شأن غيره من المفسرين.

الثاني: أن قول التابعي «الشخصي». غير المستند إلى صحابي، وغير المرفوع إلى النبي ﷺ قول يؤخذ بالقبول، ويعتد به. وحجتهم في ذلك: أن التابعين تلقوا غالب

تفسيراتهم عن الصحابة^(١) فمجاهد مثلاً يقول: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها». وقتادة يقول: «ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً»^(٢). وهذا رأى أكثر المفسرين.

تحقيق المسألة: لابن تيمية - يرحمه الله تعالى - كلمة جيدة في هذه المسألة تنقلها عنه في كتابه «مقدمة في أصول التفسير» فيما يلي: «قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟، يعنى أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم - وهذا صحيح - أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك»^(٣).

وهذا أيضاً ما استقر عليه بعض الباحثين المعاصرين كالدكتور / محمد حسين الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون» حيث يقول: «والذى تميل إليه النفس هو أن قول التابعى فى التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأى فيه فإنه يؤخذ به حيثئذ عند عدم الرية، فإن ارتبنا فيه، بأن كان يأخذ من أهل الكتاب، فلنا أن نترك قوله ولا نعتد عليه. أما إذا أجمع التابعون على رأى فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نعتداه إلى غيره»^(٤).

مطلب فى: خصائص ومميزات التفسير فى عصر التابعين

يعتبر عصر التابعين - بالنسبة لعلم التفسير - مرحلة تالية لعصر الصحابة - رضوان الله عليهم - وامتداداً لخصائصه خاصة فى ناحيتين اثنتين:

الأولى: أن خاصية التلقى والرواية، وعدم التدوين التى كانت الطابع المميز

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٢٩.

(٢) الرجوع السابق.

(٣) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص ٢٨.

(٤) التفسير والمفسرون ١/ ١٣٠.

للتفسير فى عصر الصحابة ظلت كما هى فى عصر التابعين، بشارق بسيط وهو أن التلقى والرواية لم تكن مجموعة فى إقليم واحد كما كان الشأن فى المدينة المنورة فى النصف الصحابة حول رسول الله ﷺ، وإنما أصبح لكل إقليم تلاميذ ينتشرون حول صحابى أو أصحاب نزحوا إلى هذا الإقليم والتف أهل الإقليم للأخذ عنه أو عنهم.

الثانية: النقل عن بعض الروايات الإسرائيلية فى التفسير، انتقلت هذه الخاصية أيضاً من جيل الصحابة إلى جيل التابعين، ولكن أيضاً بفارق أكبر. ذلك أن النقل عن أهل الكتاب فى عصر الصحابة كان محصوراً للغاية، خاصة عند أبى بن كعب، وابن عباس، وابن مسعود - رضى الله عنهم - ولكن فيما لا يتعدى ما هو جاد فى ديننا من مسائل، أما عصر التابعين فقد كثرت الإسرائيلية بكثرة من أسلم منهم.

هاتان الخاصتان انتقلتا إلى عصر التابعين بالنسبة لمسائل التفسير. أما الخصائص المميزة لهذه «المرحلة الثانية» (عصر التابعين) فأهمها ما يلى:

١ - بداية ظهور المذاهب والفرق، والكلام حول بعض الآيات التى حملها بعض المفسرين من التابعين آراءه الخاصة. وذلك كمسائل الكلام حول القضاء والقدر الذى نسب إلى كل من الحسن البصرى، وقتادة بن دعامة السدوسى - يرحمها الله تعالى.

٢ - اتساع الخلاف بين التابعين فى مسائل التفسير بصورة واضحة ومتباعدة بينما لم يكن الخلاف بين الصحابة فى تفسير آيات كتاب الله تعالى شيئاً ملموساً، أو محسوساً.

ومع هذا فإن هذه المسألة - أعنى مسألة الخلاف بين التابعين - لم تأخذ الفجوة العميقة التى سراها فيما بعد، وإنما يمكن أن يقال «إنه خلاف» أى بالنسبة لما سبقتهم من عصر الصحابة.

ولأما فما كان خلافهم ذا شأن كبير كما صار الحال عليه فيمن بعدهم، كما لم يكن خلافهم في التفسير «كتفسير» وإنما كان خلافهم على حسب اختلاف رؤاهم في مستجدات الوقائع التي لم تسبق من قبل في عصر الصحابة، مع اختلاف البيئات التي انتقلوا إليها ووجدوا أنفسهم بإزائها، مما لم يألوه في جزيرة العرب - من عادات وتقاليد وطبائع كان ينبغي عليهم مواجهتها لما طلبت آراؤهم فيها.

في حين أن اختلاف الصحابة لم يكن يتعدى ما عند واحد منهم من أسباب النزول، أو العلم بمفردات اللغة ما ليس عند الآخر، أو علم أحدهم بقراءة لا يعرفها غيره. كما لم يتعد خلافهم غير اختلاف العبادات حول مسمى متحد، أو أن يكون للفظ واحد عدة معان، فيحمله أحدهم على معنى، ويحمله الآخر على أحد المعاني الأخرى، أو أن يكون تعبيرهم عن المعاني بالفاظ متشابهة، وليست مترادفة - إلى غير ذلك من الأسباب التي تبدو اختلافًا وهي ليست كذلك في حقيقة الأمر.. غير أن الباحثين وضعوا لنا ما يشبه التقنين في ما لو وقع خلاف صريح بين قولين من أقوال الصحابة يتعذر الجمع بينهما في مسائل التفسير بإحدى الوسيلتين الآتيتين:

الأولى: إن تعارضت الأدلة تمامًا بحيث لا يمكن الجمع بينها فإن موقفنا من هذا التعارض أن نؤمن بمراد الله - عز وجل - ولا نلجأ إلى الميل لأحد القولين المتعارضين.

وتصبح المسألة بالنسبة لنا بمنزلة المجمال قبل أن يفصل، والمبهم قبل أن يبين، والعام قبل أن يخصص، والمتشابه قبل أن يفسر.

الثانية: يقدم قول ابن عباس - إن كان له فيها قول - على آراء غيره (وهذا رأى الزركشي) لبشارة النبي ﷺ له.

مبحثا في: التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور هو التفسير المنقول عن الرسول ﷺ، أو الصحابة، أو التابعين، فهو يشمل تفسير هذه الأجيال الثلاثة من حملة العلم ونقلته.

فهو إذا جزء من علم رواية الحديث سواء كان مرفوعاً إلى النبي ﷺ، أو موقوفاً على الصحابي، أو مقطوعاً على التابعي.

ويشترط فيه ما يشترط في علم الحديث من ضوابط النقل وصحته.

مراحل التفسير بالمأثور:

يعتبر التفسير بالمأثور أهم أنواع التفاسير على الإطلاق إذا صحت روايته ونقله، وسلمت ضوابطه من عدالة الناقل، وصحة النقل متناً وسنداً.

ولا يعدل عن هذا التفسير إلى سواء مع وجوده، وسلامة نقله إلى غيره من أنواع التفسير الأخرى.

هذا وقد مرَّ التفسير بالمأثور بعدة مراحل:

أ - المرحلة الأولى: هي مرحلة الرواية والتلقي مشافهة من صدور الشيوخ إلى عقول التلاميذ وهذه المرحلة هي المرحلة الطبيعية في حياة الأمة الإسلامية الأولى، إذ كان علم التفسير ناشئاً في أحضان علم الحديث حيث لم يكن ثمة علم يومئذ غير علم الحديث.

ومعلوم للباحثين أن الأمة الإسلامية ظلت مأمورة بعدم التدوين والكتابة إلا للقرآن الكريم وحده. فظل تدوين «ما عدا القرآن» محصوراً في نطاق ضيق جداً يقتصر على بعض الأفراد الذين كانوا يسجلون ما يتلقونه من صدور الرجال في نطاقه المحدود هذا ومع التحرج والتأثم للنهي الوارد عن المعصوم ﷺ حيث قال:

١ - «لا تكتبوا عني شيئاً ومن كتب عني غير القرآن فليمحه».

٢ - وما نقل عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - وقد سأله سائل أن يكتب له شيئاً من الحديث: «لا نكتبكم ولا نجعلها مصاحف، احفظوا كما كنا نحفظ على عهد رسول الله ﷺ».

وقد كان هذا هو حال الأمة الإسلامية في شأن «التدوين» وهو المنع بصورة «رسمية» من تدوين غير القرآن حيث كان التدوين مقصوراً على القرآن الكريم وحده.

واستمر الحال على ذلك حتى مع وجود بعض النصوص المجيزة للكتابة من مثل قوله ﷺ:

١ - قيدوا العلم بالكتابة.

٢ - قيد العلم الكتاب.

٣ - اكتبوا فوالله ما صدر مني إلا حقاً.

إذاً هذه النصوص أخذها بعض الصحابة والتابعين على محمل خاص ومحدود للغاية، وأن الإذن بها كان لضرورة خاصة كالمعاهدات، والكتب إلى الملوك، أو الإذن لكاتب معين معروف بالتنسيق وحسن الترتيب وجودة الخط كعبد الله بن عمرو بن العاص.

واستمر الامتناع عن الكتابة طبع الورعين الوجلين من الوقوع في محذور النهي عن الكتابة واكتفى حملة العلم بنقله شافهة من الصدور إلى الصدور حتى زمن الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز - يرحمه الله تعالى - (٩٩هـ - ١٠١هـ).

خشى عمر بن عبد العزيز - يرحمه الله - ضياع العلم بموت الصحابة وكبار

التابعين، كما بدأت بوادى الكذب على رسول الله ﷺ تظهر بعد ما انساح العرب فى بلاد الأعاجم نتيجة الشتوحات ودخول بعض رؤساء الأديان فى الإسلام دغلاً وحقداً لا إيماناً وتصديقاً وهؤلاء بدأت أحقادهم على الإسلام تشرح بيضتها.

فما كان من عمر بن عبد العزيز - يرحمه الله - إلا أن كلف ابن شهاب الزهرى بجمع الحديث وتدوينه وكان هذا أول أمر «رسمى» بتدوين العلم وكتابته. فانصاع ابن شهاب الزهرى لهذا الأمر مع تخرجه واعتذاره بقوله: «والله لولا أن عمر بن عبد العزيز أمرنا بالكتابة ما كتبت».

وقد استمرت مرحلة الرواية هذه حتى طالت ثلاثة أجيال هي:

١ - جيل الصحابة. ٢ - جيل التابعين. ٣ - جيل تابعى التابعين.

غير أن بداية «الإذن الرسمى» الذى أصدره عمر بن عبد العزيز كان فى بداية أواسط جيل التابعين حيث استمر الغالب فى نقل العلم على المشافهة - مع وجود الإذن بالكتابة - وقد كانت المشافهة هي السمة الغالبة فشمّلت جيل أواسط التابعين ثم صغار التابعين - ثم بداية تابعى التابعين فى أول العصر العباسى. وفى هذه المرحلة المباركة كانت مصادر التفسير هي:

١ - تفسير القرآن بالقرآن .

٢ - الحديث النبوى الشريف .

٣ - اجتهاد الصحابة: وكان هذا الاجتهاد مبنياً على:

أ - اللغة. ب - قوة الاستنباط من النص القرآنى والقدرة عليه بما كان يملكه

علماء الصحابة فى التفسير من الملكة الشخصية، ورؤية التنزيل.

٤ - كما كان هناك مصدر رابع لا يستهان به وإن لم يكن أساسياً ألا وهو:

الرجوع إلى «مسلمة أهل الكتاب» من اليهود والنصارى.

ب - المرحلة الثانية: وهى مرحلة التدوين والكتابة: وهذه المرحلة بدأت منذ أن أصدر عمر بن عبد العزيز أوامره بالتدوين فى أول القرن الثانى الهجرى وظلت ممتدة إلى عصرنا الحاضر، فهى إذا مرحلة عظيمة وهامة إذ تميزت بظاهرتين هامتين:

الأولى: استقرار التفسير بالمأثور فى بطون المدونات التفسيرية، مما حفظ لنا هذا التفسير بأسانيد، وطرقه، ومروياته، ورواته فى هذه المدونات العظيمة فبقيت إلى يومنا هذا، وإلى قيام الساعة إن شاء الله تعالى.

وأصبح فى متناول كل باحث أن يطلع على ما فسره النبى ﷺ من آى القرآن وما فسره الصحابة الذين كانوا على علم بالتفسير وأهمهم الأربعة المكثرون من التفسير وهم: ابن عباس، وابن مسعود، وعلى بن أبى طالب، وأبى بن كعب، وهم الذين قامت على أكتافهم فيما بعد مدارس التفسير المشهورة فى الأقاليم الإسلامية وهى: مكة، والمدينة، والعراق.

الثانية: اكتشاف أى دخیل على هذا اللون من ألوان التفسير بمجرد قراءة «المروية التفسيرية» والنظر فى رجالها، ونصّها، وذلك بالرجوع إلى السجلات الضابطة لتواريخ الرجال ومعرفة أحوالهم من صحة الرواية جرحاً أو تعديلاً.

وأهم المدونات التفسيرية التى سجلت لنا المرويات التفسيرية عن الأجيال الثلاثة المباركة هى:

١ - جامع البيان فى تفسير القرآن لابن جرير الطبرى.

٢ - معالم التنزيل لأبى محمد بن الحسين البغوى.

٣ - بحر العلوم لأبى الليث السمرقندى.

٤ - تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء الحافظ ابن كثير.

٥ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي.

وهناك مدونات أخرى غير هذه أيضاً، كما أن منها ما جمع التفسير بالمأثور وحده فنقل التفسير بالرواية والأسانيد على ترتيب المصحف دون أن يدخل فيه شيئاً من الاجتهاد أو اللغة، أو النحو أو الأحكام كتفسير السيوطي، ومنها ما كان جامعاً للمأثور والاجتهاد المحمود معاً كتفسير الطبري، ومنها ما حذف أسانيد الرواية، وأوقفها فقط على مَنْ صدرت عنه مباشرة.

غير أن ما ينبغي الإشارة إليه أن مرحلة التدوين للمأثور مرت «داخلياً» هي الأخرى بأدوار أهمها ما يلي:

١ - دور التبعية لعلم الحديث: حيث بدأ التدوين لعلم الحديث إذ سبق أن قلنا بأنه حتى بداية العصر العباسي لم يكن ثمة علم يومئذ غير علم الحديث، حتى أن لفظ «العلم» في هذه الفترة التاريخية لم يكن يعرف إلا أنه علم الحديث. فبدأ جمع الحديث من صدور الحفظة إلى سطور الكراريس. ولما انتهت مرحلة الجمع من الصدور إلى السطور وفيها أحاديث ذات موضوعات شتى فمنها أحاديث تتعلق بالأحكام من طهارة، وصلاة، وآذان، وحج، وزكاة، وصوم، وبيع، وسلم، وصرف، ومزارعة، ومصانعة، وزواج، وطلاق، وحرب، وسلم، وأسرى، وتقاض. ومنها ما يتعلق بالتفسير وبيان مراد الله - تعالى - من كلامه المنزل على رسوله الكريم كأسباب النزول، و النسخ والمنسوخ وغيرها. وهكذا جمعت الدواوين ما حفظته الصدور.

فلما عرف الناس التدوين عرفوا التبويب والتهذيب. فبدأوا يضمون الأحاديث ذوات الموضوع الواحد تحت باب واحد، والأبواب المتشابهة في علم واحد تحت كتاب واحد، فهذا كتاب في الطهارة يحتوى على أبوابها، وهذا كتاب في التفسير يحتوى على سور القرآن وما قيل في كل سورة من مأثور القول. وفي هذه المرحلة

انجمع علم التفسير فى باب مستقل داخل كتب الحديث ومصنفاته وأشهر من أفرد أبواب التفسير فى كتب المرويات الحديثه هم بالترتيب الزمنى:

١ - يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧هـ .

٢ - شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠هـ .

٣ - وكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧هـ .

٤ - روح بن عبادة المتوفى سنة ٢٠٥هـ .

٥ - عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١هـ .

٦ - آدم بن إياس المتوفى سنة ٢٢٠هـ .

٧ - عبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩هـ .

٢ - دور الاستقلال عن علم الحديث: وفى هذه المرحلة استقلت الأحاديث

المنجّمة فى كتب الحديث تحت عنوان «باب فى التفسير» أو تحت عنوان «كتاب التفسير» وصارت فى كتب مستقلة، ومصنفات خاصة عُرِفَتْ بـ «التفسير المأثور».

واستمر هذا الدور من الثلث الأخير للقرن الثالث الهجرى إلى العقد الأول من

القرن الهجرى.

وعُزِيَ جمع التفسير بالمأثور فى هذا الدور إلى ثلّة من العلماء كلهم من أهل

الرواية الحديثية كما كان الحال فى الدور الأول دور التبعية لعلم الحديث.

وأشهر من جمع تفاسير مستقلة فى مصنفات فى هذا الدور هم حسب الترتيب

الزمنى لوفياتهم:

١ - ابن مساجسه المتوفى سنة ٢٧٣هـ .

٢ - ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ .

٣ - أبو بكر التيسابورى المتوفى سنة ٣١٨هـ .

٤ - ابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧هـ .

٥ - ابن حبان المتوفى سنة ٣٦٩ هـ .

٦ - الحاكم النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٥ هـ .

٧ - ابن مردويه المتوفى سنة ٤١٠ هـ .

٣ - دور اختصار الإسناد، أو حذفه نهائياً : وفي هذا الدور خلا التفسير بالمأثور من ذكر السند، وبقيت المستون دون عزو لقائل، وأصبح الإسناد موقوفاً على أعلا راو في السند دون ذكر بقية الرواة.

وهذا أدى إلى أول مدرج من مدارج الوضع في التفسير، كما كان أول إلباس بدخله مصنفو هذه الكتب على قارئها في هذا الدور بحيث ظن ما ليس بصحيح صحيحاً. بل أصبح الأمر أكثر خطورة إذ نقلت الإسرائيليات في هذه الكتب خالية من ثقلها، فأخذت على أنها حقائق تفسيرية ثابتة ومقطوع بها. إلى جانب أن مصنفى هذا الدور لم يحرروا المسائل التي قطع بالتفسير فيها إذ المعلوم أن ما قطع بتفسيره عن الصدر الأول لا يحتاج بعد ذلك إلى من يفسره.

ومع انتقال الأمة من تحويل العملية التعليمية من مرحلة التعليم بواسطة «التلقى» إلى مرحلة التعليم بواسطة «التدوين» فإن هذه الخطوة الأخيرة أحدثت خللاً خطيراً. إذ ما كاد الناس يستغنون عن «التلقى» إلى «التدوين» حتى استغنوا أيضاً عن «الإسناد» إلى تصنيف الكتب في التفسير دون عزو لقائل. وهذا الخلل برمته فرخ في هذه المرحلة ثلاث ظواهر سلبية هي:

١ - ظهور الإسرائيليات بشكل كبير، وعدّها كأنها حقائق ثابتة.

٢ - ظهور الوضع والكذب في التفسير على غرار ما كان في الحديث.

٣ - ظهور التفسير بالرأى.



نموذج من مناهج المفسرين بالمأثور

ابن جرير الطبري وتفسيره

« جامع البيان »

نتناول الآن - بحمد الله وتوفيقه - بعض المختارات والنماذج من كتب ومصنفات التفسير بالمأثور، ومناهج أصحابها فيها، وطريقة تناولهم لتفسير آيات الذكر الحكيم.

وسنعرض الآن لأولى هذه المختارات والنماذج فيما يلي:

١ - اسم المصنّف: جامع البيان في تفسير القرآن.

اسم المصنّف: أبو جعفر: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ. عدد أجزاء المصنّف: ثلاثون جزءاً. إجمالي عدد صفحات المصنّف: ٨٠٠٠ ثمانية آلاف صفحة على وجه التقريب لا التحديد إذ يختلف كل جزء عن الآخر حسب الطباعة الحديثة.

✽ الطبري: حياته وتلقيه العلم: المحققون من أهل العلم سلّموا لابن جرير الطبري بالاجتهاد المطلق، لما جمعه من أدوات الاجتهاد الكاملة، ومعرفته بشتى الفنون معرفة تامة.

✽✽ ولد محمد بن جرير الطبري سنة ٢٢٤هـ في آمل بطبرستان، وإليها نسب.

✽✽ رحل من بلده طلباً للعلم وهو في الثانية عشرة من عمره، فنزل مصر، والشام، والعراق.

شيوخه: وأخذ العلم عن كبار شيوخ عصرهم في هذه البلاد منهم:

محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، وإسحاق بن إسرائيل، وأحمد بن منيع

البغوي، ومحمد بن حميد الرازي، وأبو همام الوليد بن شجاع، وأبو كريب محمد ابن العلاء، ويعقوب بن إبراهيم الدورقي، وأبو سعيد الأشج، ومحمد بن بشار، ومحمد بن المثني، وعمرو بن علي، وغيرهم من أقران عصرهم في البلاد التي رحل إليهم فيها وهي: الشام، والعراق، ومصر.

منزلة الطبري في العلم: تكلم الخطيب البغدادي عن الإمام محمد بن جرير الطبري في «تاريخ بغداد» بما يعين الطالب على فهم المنزلة العلمية التي وصل إليها ابن جرير في عصره فقال: «كان أحد أئمة العلم، يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفة وفضله» وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره. وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنة وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخاضعين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك، وكتابه: في التفسير لم يصنف أحد مثله. وكتاب سماه تهذيب الآثار لم أر سواه في معناه إلا أنه لم يتمه. وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، واختيار من أقاويل الشافعية. وتفرّد بمسائل حفظت عنه. يكثر أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة.

قال أحمد بن أبي الطاهر الإسفرايني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً».

وقال عبيد الله بن محمد السمسار: «إن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أنشطون لتفسير القرآن؟ (يعني نسخه) قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة. فقالوا: هذا ربما تفتني الأعمار قبل تمامه فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة.

ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحوه مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله مائت الهمم، فاختصره في نحو ما اختصر التفسير^(١).

* عده العلماء من الأئمة، وسلموا له بالاجتهاد المطلق حتى صار له مذهب فقهي عرف باسم «الجريرية» انتشر، وقلده فيه كثير من الناس ثم انقرض وكان أول أمره على مذهب الإمام الشافعي - يرحمه الله تعالى.

وهذا ما ينقله لنا السبكي في طبقات الشافعية على لسان ابن جرير الطبري فيقول: «أظهرتُ فقه الشافعي، وأفتيتُ به في بغداد عشر سنين، وتلقاه مني ابن بشار الأحول أستاذ أبي العباس بن سريج»^(٢).

وذكره السيوطي في طبقات المفسرين فقال: «كان أولاً شافعيًا، ثم انفرد بمذهب مستقل، وأقاويل واختيارات، وله أتباع ومقلدون، وله في الأصول والفروع كتب كثيرة»^(٣).

درجته في الرواية: اختلط على بعض علماء التاريخ كأحمد بن علي السليماني حال محمد بن جرير الطبري فنسب إليه ما لم يكن من حاله، حيث ذكر عنه أنه كان يضع للروافض. وقد رد العلامة ابن حجر في «لسان الميزان» هذا الزعم فقال: «ثقة، صادق، فيه تشيع يسير، وموالة لا تضر.. وقد أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال عنه: «كان يضع للروافض، وهذا رجم بالظن الكاذب، بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما ندعى عصمته من الخطأ، ولا يحل

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٦٢/٢ - ١٦٩ باختصار.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ١٣٥/٢.

(٣) طبقات المفسرين للسيوطي ص ٣.

لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم فى بعض ينبغى أن يتأنى فيه، ولا سيما فى مثل إمام كبير». ولعل السليمانى أراد - محمد بن جرير بن رستم الطبرى الرافضى.

قال ابن حجر: «ولو حلفت أن السليمانى ما أراد إلا ابن رستم هذا لبررت. والسليمانى حافظ متيقن كان يدرى ما يخرج من رأسه، فلا أعتقد أنه يطعن فى مثل هذا الإمام بهذا الباطل» (١).

أوصافه: كان - رحمه الله تعالى - أسمر إلى الأدمة، أعين، نحيف الجسم، ورید الثامّة، فصيح اللسان، ولم يؤذ به أحداً (٢).

تلاميذه: حدث عنه: أحمد بن كامل القاضى، ومحمد بن عبد الله الشافعى، ومخلد بن جعفر، وخلق كثير (٣).

تفسيره: يطلق بعض الباحثين على ابن جرير أنه: «أبو التاريخ» كما يطلقون عليه أنه «أبو التفسير» وهذا الإطلاق فى الأوصاف لم يأت من فراغ.

ومعنى أنه أبو التاريخ: أنه أول مؤرخ فى الإسلام وضع تاريخاً موثقاً للبشرية منذ أول آدم عليه السلام واستوعب تاريخ الأرض استيعاباً لم يسبقه فيه أحد فى الإسلام. ونفس هذا المعنى ينسحب عليه فى علم التفسير.

فهو «أبو التفسير» وواضع أول كتاب «كامل». فى تفسير جميع آيات القرآن الكريم آية آية بكل مروياتها الماثورة بطرقه هو التى تلقاها عن المفسرين المحدثين.

(١) لسان الميزان ١/ ١٠٠ - ١٠٢.

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢/ ١٦٢ - ١٦٩.

(٣) المصدر السابق.

وقد أجمع الباحثون من الإسلاميين والمستشرقين على السواء على أن
فى تفسير الطبرى غنية وكفاية عن سائر التفاسير: يقول ابن تيمية فى
«الفتاوى»: «وأما التفاسير التى فى أيدى الناس فأصحها تفسير ابن جرير
الطبرى، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة وليس فيه بدعة، ولا
ينقل عن المتهمين كمقاتل بن سليمان، والكلبى»^(١).

وينقل المستشرق الألمانى «جولد زيهر» عن مقال كتبه المستشرق
«نولدكه». فى سنة ١٨٦٠م بعد أن قرأ شيئاً عن كتاب جامع البيان
للطبرى - ولم يكن كتاب الطبرى قد ظهر طبعه بعد - فقال: «لو كان
بيدنا هذا الكتاب لاستغنيا به عن كل التفاسير المتأخرة ومع الأسف فقد
كان يظهر أنه مفقود تماماً، وكان مثل تاريخه الكبير مرجعاً لا يفيض معينه
أخذ عنه المتأخرون معارفهم»^(٢).

هذا والحمد لله فقد ظهر الكتاب من عهد قريب، إذ وجدت نسخة
خطية فى حوزة الأمير حمود بن عبد الرشيد أمير حائل بمنطقة نجد
بالسعودية فطبع عليها الكتاب، وتداولته أيدى طلاب العلم^(٣).

مطلب فى : منهج ابن جرير فى تفسيره :

تنحصر جملة مناهجه التى سلكها فى كتابه «جامع البيان» فى عدة نقاط :

أولها : التزامه التام بالنقل المأثور عن الأجيال الثلاثة الأولى مع ذكر
سلسلة الرواية كاملة حتى تنتهى إلى قائلها الأصيلى مرفوعة إلى النبىِّ
ﷺ ، أو موقوفة على الصحابة، أو مقطوعة على التابعى .

(١) فتاوى ابن تيمية ٢ / ١٩٢ .

(٢) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٨٥ .

(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ١ / ٢٠٤ .

والطبرى ينقل سلسلة الرواية بطريقه هو. وهو وإن لم يفند هذه الرواية من حيث القوة والضعف، ولم يحكم عليها إلا أنه يكون - أى بمجرد ذكر سلسلة الرواية - يكون قد خرج من العهدة العلمية. علماً بأن الطبرى التزم بعدم النقل عن المشهورين بالتلفيق والكذب كمقاتل بن سليمان، ومحمد بن السائب الكلبي كما سبق أن نقلناه عن ابن تيمية.

ثانيها: يبدأ الآية التى يريد أن يفسرها بذكر معناها العام إجمالاً بما يتفق له مع مآثور الرواية عنده فيقول :

« القول فى تأويل قول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا أُمْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ يقول : فإذا أُمْت حين تحصر؛ إذا أُمْت من كسرك، من وجعك فعليك أن تأتى البيت فيكون لك متعة فلا تحل حتى تأتى البيت. وقال آخرون معنى ذلك : فإذا أُمْت من وجع خوفكم.

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر، قال : حدثنا يزيد، قال حدثنا سعيد، عن قتادة قوله : ﴿ فَإِذَا أُمْتُمْ ﴾ لتعلموا أن القوم كانوا خائفين يومئذ^(١). ثم يعدد الروايات فى ذكر من قال بهذا المعنى إن كان فيها أكثر من طريق، أو أكثر من قائل.

ثالثها : لا يقف مكتوفاً على مجرد الرواية، وإنما :

١ - يتعرض لتقصدها إذا تبين له أن الرواية مخالفة لظاهر النص القرآنى. فنراه يتعرض لمجاهد بن جبر عندما قال فى قوله تعالى ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ قال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثلى الحمار يحمل أسفاراً .

(١) جامع البيان ٢/ ١٤٣ .

يَرُدُّ ابن جرير قول مجاهد هذا فيقول: «وهذا القول الذي قاله مجاهد قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف»^(١).

والطبرى هنا يميل إلى الأخذ بالمذهب الظاهر من لفظ القرآن فحين أن الحق قد يكون مع مجاهد، فلا سبيل إلى القطع إذن بأن مراد الله تعالى في هذا هو المسخ الحقيقي أو المسخ المجازي.

٢ - أو يرجح بين قولين فيختار أحدهما دون الآخر كما في قوله تعالى: ﴿تَبْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيها قولان، ولكل قول منها روايات:

الأول: أنا أول المؤمنين بك من قومي أن لا يراك في الدنيا أحد إلا هلك. فيأتي الطبرى بأسانيده على ذكر من قال ذلك وهم: أبو العالية، والربيع، ومجاهد، وابن عباس.

الثاني: أنا أول المؤمنين بك من بنى إسرائيل. فيذكر أن ذلك قول عكرمة، ومجاهد في رواية أخرى عن ابن عباس. ثم يختار الطبرى القول الثاني ويعلل هذا الاختيار بقوله: «لأنه كان قبله في بنى إسرائيل مؤمنون وأنبياء منهم من ولد إسرائيل لصلبه، وكانوا مؤمنين وأنبياء فلذلك اخترنا القول الذي قلناه قبل»^(٢).

رابعها: يحتكم الإمام الطبرى إلى اللغة، والمعروف من كلام العرب عندما يجد أن الآراء تتعاضد مع المفهوم اللغوي، وهذا له من النماذج في تفسير الطبرى الشيء الكثير. ويدخل في هذا المنهج احتكام الطبرى إلى الشعر القديم، وهذا أيضاً شواهد كثيرة يلمسها الطالب عندما يضع الكتاب عملياً بين يديه، ويقلب في صفحاته جزءاً جزءاً.

(١) جامع البيان ١/ ٢٥٢.

(٢) جامع البيان ٩/ ٥٥-٥٦.

خامسها: يعنى عناية فائقة بذكر القراءات، ويثبت منها ما صحت روايته ويرد القراءات الواردة من غير أئمتها المشهود لهم بصحة الرواية.

وابن جرير الطبرى فى هذا يصدر عن قدم راسخ فى علم القراءات، فإنه ألف فى هذا العلم كتاباً ضخماً فى ثمانية عشر مجلداً كما يذكر ذلك ياقوت الحموى فى ترجمة ابن جرير^(١).

سادسها: يكثّر الطبرى من إيراد مسائل النحويين والصرفيين حسب مدارسهم المختلفة، ويبين وجوه الإعراب إذا كان لها فى الآية أكثر من وجه.

سابعها: يتعرض كثيراً لذكر المرويات المنقولة عن مسلمة أهل الكتاب من اليهود والنصارى أو ما يُعرف باسم «الإسرائيليات».

وابن جرير فى ذلك متأثر بمواقف المفسرين فى عصره فى النقل عن الروايات الإسرائيلية وربما كان لاشتغاله بالتواريخ القديمة أثرها عليه فى ذلك النقل أيضاً.

وتفسير الطبرى فى هذه الناحية من منهجه يحتاج إلى دقة القارئ فى تمحيص الرواية والوقوف على صحتها.

ثامنها: وقوفه كثيراً عند الآيات التى تتناول الحلال والحرام، وتعنى بالمسائل الفقهية، فيذكر عندها آراء الفقهاء. وتظهر فى العرض لهذه المسائل ملكة الاجتهاد عنده، فيختار رأى الراجح، أو يخلص هو إلى رأى بنفسه، ويسوق الأدلة العلمية عليه^(٢).

هذا إلى جانب تعرضه لمسائل تخص علم الكلام والجدل، كما أنه يقف فى وجه من يتصدى لتفسير الآيات بالرأى المجرد، ويصنعه باخلو عن العلم^(٣).

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموى ٤٥ / ١٨ .

(٢) راجع فى ذلك ص ٥٧ وما بعدها من الجزء الرابع عشر .

(٣) راجع ص ١٣٨ من الجزء الثانى عشر، وغيره كثير .

هذا وقد عكف الطبرى على تفسير كتابه «جامع البيان» زهاء سبع سنوات يمليه على أصحابه إملاءً .

وكانت أهم مروياته المأثورة فى هذا التفسير ما ذكره ياقوت فى معجم البلدان ونقلها الشيخ محمد حسين الذهبى فقال: « ذكر فيه من كتب التفاسير المصنفة عن ابن عباس خمسة طرق، وعن سعيد بن جبير طريقين، وعن مجاهد بن جبر ثلاثة، وعن عكرمة ثلاثة طرق، وعن الضحاك بن مزاحم طريقين، وعن عبد الله بن مسعود طريقاً .

وتفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وتفسير ابن جريج، وتفسير مقاتل بن حبان. سوى ما فيه من مشهور الحديث عن المفسرين وغيرهم، وفيه من المسند حسب حاجته إليه .

ولم يتعرض لتفسير غير سوثوق به، فإنه لم يدخل فى كتابه شيئاً عن كتاب محمد بن السائب الكلبي، ولا مقاتل بن سليمان، ولا محمد بن عمر الواقدي لأنهم عنده أظناء» (١) .



(١) التفسير والمفسرون ١/ ٢١٨ .

مبحث في: التفسير في بداية عصر التدوين

من المعروف علمياً أن عمر بن عبد العزيز خاس الراشدين - يرحمه الله تعالى - هو أول من اتخذ خطوة عملية نحو نقل الأمة الإسلامية كلها من عصر تلقى العلم رواية ومشافهة إلى مرحلة تسجيل العلم واستعمال القراطيس، وتدوين العلوم.

وأحسب أن ذلك القرار - في ذلك الوقت - كان يُعدّ انقلاباً هائلاً في الحركة العلمية. ذلك أنه قد مرَّ قرن كامل وحركة التعليم كلها قائمة على المشافهة وتلقى الرواية وذلك للمنع الصادر من رسول الله ﷺ، ونهيه عن كتابة شيء سوى القرآن الكريم.

ولقد أشبع الباحثون هذه المسألة بحثاً، وعزوها إلى أن التحذير الوارد فيما كان خوف إلباس كتاب الله ما ليس منه، فلما أمن اللبس ظهر الأمر، والإذن بالكتابة في قوله ﷺ: «قِدُّوا العلم بالكتاب». وقوله: «اكتبوا فوالله ما حذر مني إلا حقاً». مما حدا ببعض الباحثين إلى محاولة التأكيد على أن الكتابة ظهرت في عصر مبكر قبل عمر بن عبد العزيز^(١).

وأيّ ما كانت الآراء فإن الكلّ مجمّع على أن «عصر التدوين» لم يأخذ السمة البارزة له والتي نستحق تطابق هذه التسمية إلا في أواخر عهد الدولة الأموية، وأول قيام دولة العباسيين أي قبل منتصف القرن الثاني الهجري.

وفي هذا الوقت بدأت المرحلة الثالثة للتفسير بعد المرحلة الأولى في عصر الصحابة، والمرحلة الثانية في عصر التابعين وظهور مدارس التفسير في مكة، والمدينة، والعراق، وبعض الباحثين ينظر إلى هذه المرحلة الثالثة نظرة ثنائية:

(١) دلائل اثبتت لبكر للسنة والحدث د/ انبار أحمد ص ٢٦.

١ - فيعتبر جيل الصحابة وجيل التابعين خطوة أولى في التفسير تعتمد على تلقى العلم رواية.

٢ - ومرحلة ما بعد التابعين خطوة ثانية لتلقى العلم عن طريق التدوين والكتابة، وهذا التقسيم لا مشاحة فيه لأنه من قبيل اصطلاح العلماء^(١).

مطلب في التدوين :

أ- في بداية مرحلة التدوين : لم يكن هناك ثمة علم غير علم «الحديث» وجلَّ اهتمام المدونين كان مقتصرًا على الحديث النبوي الشريف ، مع تنوع أبواب الحديث في كافة العلوم كالفقه، والتاريخ وغيرهما .

ولا شك أن علم التفسير كان أحد الأبواب الهامة التي أفرد لها المحدثون مكانًا رحبًا في كتبهم، فأفردوا تحت هذا الباب مرويات الصحابة والتابعين في تفسير آيات القرآن الكريم سواء ما كان منها مرفوعًا إلى النبي ﷺ ، أو موقوفًا على الصحابة، أو مقطوعًا على التابعين.

وكان الطابع المميز لهذه الفترة في بداية التدوين ما يلي :

١ - لم يفرد للتفسير تأليف خاص به منفصل عن علم الحديث ومستقل بنفسه.

٢ - لم يعرف أن أحداً قام بتفسير كل آيات القرآن الكريم سورة وآية. وإن كان «ما جمع ودون هو ما روى من الآثار في آيات وسور متفرقة» . وأشهر من تصدى لتدوين التفسير وأفرد له كتاب من أبواب الحديث منهم :

١ - يزيد بن هارون السلمي المتوفى سنة ١١٧ هـ .

(١) التفسير والمفسرون ١ / ١٤٥ .

٢- شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ .

٣- وكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هـ .

٤- روح بن عبادة المتوفى سنة ٢٠٥ هـ .

٥- عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١ هـ .

٦- آدم بن إياس المتوفى سنة ٢٢٠ هـ .

٧- عبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩ هـ .

ولعلك تلاحظ أن هذه الأسماء لأشخاص برزوا في علم الحديث، فلم يكن شأنًا مستغربًا أن يكون التفسير عندهم من أبواب علم الحديث.

ولم يكن مستغربًا أيضًا أن يكون ما جاء في هذه الأبواب إنما هي مروياتهم هم بأنفسهم تلقوها عن سبقتهم. بفارق واحد فقط هو أنهم قيدوها ودونوها في الكتب. ومن قبلهم، كانت من محفوظات الصدور لا من مكتوبات السطور .

ب- المرحلة الثانية في عصر التدوين : هي «مرحلة الاستقلال عن الحديث».

في أول القرن الرابع الهجري أخذت تبرز شخصية «علم التفسير» كعلم مستقل بذاته له مصنفاته الكاملة في تفسير آيات القرآن آية آية، وعزى ذلك إلى طائفة من العلماء نذكر أشهرهم فيما يلي حسب ترتيب وفياتهم.

١- ابن ماجه صاحب السنن المتوفى سنة ٢٧٣ هـ .

٢- ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

٣- أبو بكر بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة ٣١٨ هـ .

٤- ابن أبي حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هـ .

٥- أبو الشيخ بن حبان المتوفى سنة ٣٦٩ هـ .

٦- الحاكم النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٥ هـ .

٧ - وأبو بكر بن مردويه المتوفى سنة ٤١٠ هـ .

ويلاحظ على التفسير فى تلك الفترة الخصائص التالية:

❖ الاستقلال التام فى مؤلفات خاصة.

❖ لا يوجد فيها من آراء المفسر الشخصية شىء يذكر إلا ما عند ابن جرير الطبرى من توجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، وإعراب بعض الآيات أحياناً، واستنباط بعض الأحكام أحياناً أخرى - وستعرض لذلك إن شاء الله تعالى.

❖ ما يوجد فى هذه التفاسير - رغم استقلالها بمصنفات - أنها مرويات صاحب الكتاب المفسر عن سبقة من مفسرى أتباع التابعين، ثم التابعين، ثم الصحابة - رضى الله عن الجميع - بسلسلة روايته هو شخصياً عن هؤلاء. وبهذه الخاصية الأخيرة تكون الخصائص متصلة منذ عهد الصحابة إلى وقت المرحلة الثانية من عصر التدوين.

وما ينبغى أن يعرفه طالب العلم أن هذا لم يكن أبداً أول ما دون من الكتب على سبيل الاستقلال على وجه الإطلاق، فلا يعدم أن يكون لأحد العلماء ممن سبقهم كتاب مجموع فى تفسير كل القرآن أو غالبه، وما ذكرناهم مثطوع بينهم، وأما من قبلهم فاجتهادات باحثين، واستقراءات منتبين، ومن هؤلاء المجتهدين المنتخبين من يقول بأن الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ هو أول من دون تفسيراً جامعاً لكل آيات القرآن مرتباً على وفق ترتيب المصحف، أو سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٥ هـ أو عبد العزيز بن جريج المتوفى سنة ١٥٠ هـ . والذي نعرفه الآن أن تفسير الفراء المعنون بـ «معانى القرآن». مطبوع بين أيدينا فى ثلاثة أجزاء وهو وإن كان لكل سور القرآن إلا أنه يبقى خاصاً بمعانى القرآن فقط دون استقصاء لأحكامه وسائر فنون التفسير الأخرى، فهو وإن استوعب السور إلا أنه لم يستوعب كل

آيات السور آية آية. فيبقى تقرير المسألة على ما ذكرناه من أن حصر الكتب المصنفة في التفسير بالمعنى العام في هذه الكتب السبعة من سنة ٢٧٣هـ إلى ٤١٠هـ.

حـ. المرحلة الثالثة : ويعرفها الباحثون بأنها مرحلة اختصار الأسانيد، أو حذفها نهائياً من التفسير. واشتراك هذه المرحلة مع ما سبقها من مراحل إنما هو في استمرار التفسير بالمأثور والجديد في هذا «المأثور» أنه خلا من السند، وبقيت المتون دون إسناد، أو على أقل تقدير أوقف النقل على أعلا رجل في الإسناد، واختصرت السلسلة كلها.

وهذا أدى إلى أول مدرج من مدارج الوضع في التفسير، كما كان أول إلباس يدخله مصنف هذه الكتب على قارئها فيظنون ما ليس بصحيح صحيحاً.

كما أصبح الأمر أكثر خطورة من ذلك إذ نقلت الإسرائيليات في هذه الكتب على أنها حقائق ثابتة ومقطوع بها. إلى جانب أن مصنفها لم يحرروا المسائل التي قُطِعَ بالتفسير فيها، ومعلوم أن المقطوع بتفسيره بالنص لا يحتاج بعده إلى تفسير. فإذا عرفنا من تفسير النبي ﷺ أن «الكوثر». في قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ نهر في الجنة أعطاه الله لنبيه، والخطاب موجه إلى النبي ﷺ، فليس لأحد من المفسرين بعد ذلك أن يفسر الكوثر بغير ما فسر به النبي ﷺ.

والذي حدث في هذه المرحلة «الخطيرة» أنه مع انتقال الأمة من تحويل العملية التعليمية من مرحلة التعليم بواسطة «التلقى».. إلى مرحلة التعليم بواسطة «التدوين» والكتابة، فإن هذه الخطوة الأخيرة أحدثت خللاً بالغ الخطورة! إذ ما كاد الناس يستغنون عن «التلقى» إلى «التدوين» حتى استغنوا أيضاً عن «الإسناد». إلى تصنيف الكتب في التفسير دون عزو لقائل، كما كان الحال طوال عصور الصحابة،

التابعين وأتباع التابعين.

هذا الخلل برمته فرَّخَ في هذه المرحلة ثلاث ظواهر سلبية خطيرة هي:

- ١ - ظهور الإسرائيليات وتنشئها في التفسير، واعتبارها حقائق مسلَّمة.
- ٢ - ظهور الوضع والكذب في التفسير على غرار ما كان في علم الحديث.
- ٣ - ظهور عصر التفسير العقلي.

مبحث في التفسير بالرأى

التفسير بالرأى هو أحد قسمي التفسير الرئيسين وهما التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأى، ويقال له أيضاً بالاجتهاد.

والتفسير بالرأى (الاجتهاد) نوعان:

الأول: التفسير بالرأى الجائز. **الثاني:** التفسير بالرأى الممنوع (المذموم).

وقد ظهر التفسير بالمأثور في أول الخلافة العباسية مع بداية ظهور العصر العباسي الأول عندما كثرت الفرق والمذاهب، وبرزت على الساحة الحركات الفكرية والعقلية كالمعتزلة وغيرهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن التفسير الاجتهادي ليس معناه طرح التفسير بالمأثور المنقول عن سلف الأمة، ولكن معناه الاجتهاد في تفسير ما لم يثبت فيه منقول صحيح، ولا أثر مروي. وأياً ما كان فإن العلماء اختلفوا في جواز التفسير الاجتهادي. فذهب قوم إلى منعه تماماً، وقالوا لا يجوز لأحد بعد الأجيال الثلاثة الأولى أن يفسر القرآن مهما بلغت مرتبته من العلم، وأقاموا على ذلك أدلة كثيرة. وذهب آخرون إلى نقيض ما ذهب إليه الأولون فأجازوا لمن كان ذا علم وبصر، وتكاملت فيه أدوات علمية معينة أن يجتهد في التفسير.

وهؤلاء نتضوا أدلة المانعين، وحددوا شروطًا للمفسر المجتهد إذا توفرت في أحد جاز له أن يخوض في بيان مراد الله - تعالى - من آياته .

أدلة الفريقين

أدلة المانعين للتفسير بالرأى :

استدل المانعون للتفسير بالرأى بأدلة كثيرة نذكر أهمها فيما يلي، ونعقبها بنتقض المجوزين للتفسير بالمأثور وهي:

الدليل الأول: قالوا: إن التفسير بالرأى قول على الله بغير علم «صغرى»، والقول على الله بغير علم منهي عنه «كبرى». فالتفسير بالرأى منهي عنه «نتيجة».

دليل الصغرى: أن المفسر بالرأى ليس على يقين بأنه أصاب ما أراد الله تعالى ولا يمكنه أن يقطع بما يقول، وغاية الأمر أنه يقول بالظن، والقول بالظن قول على الله بغير علم.

ودليل الكبرى: أن الله تعالى جعل القول بغير علم من المحرمات الأربع المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

وردة المجوزون للتفسير بالرأى هذا الدليل فقالوا: نمنع الصغرى: لأن الظن نوع من العلم إذ هو إدراك الطرف الراجح وعلى فرض التسليم بالصغرى فإننا نمنع الكبرى لأن الظن منهي عنه إذا أمكن الوصول إلى العلم اليقيني.

أما إذا لم يوجد العلم اليقيني فالظن كافٍ لاستناده إلى دليل شرعي مقطوع به،

(١) الأعراف: ٣٣ .

وهو قوله تعالى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١).

وقوله ﷺ: «من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر». وكذلك قوله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن فقال له: «يَمَّ مُحْكَمٌ يَا مُعَاذُ؟» قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو». فضرب رسول الله ﷺ صدر معاذ وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله^(٢).

الدليل الثاني: أن المبين عن الله تعالى والمفسر لآياته هو النبي ﷺ لقول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٣). فليس لغيره أن يفسر آيات الله تعالى.

ورد المجوزون هذا الدليل فقالوا: نعم النبي ﷺ مأمور بالبيان، وقد بين ما احتاج الناس إلى تفسيره في عصره، وقبض ولم يرد عنه تفسير القرآن آية آية. وما لم يرد عنه فيه شيء من التفسير فللمجتهدين من أهل التفسير فيه فكر ونظر دعاهم الله تعالى إليه في آيات كثيرة منها: ﴿لَعَلَّيْكُمْ يَتَشْكُرُونَ﴾^(٤). ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٥). ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾^(٦).

الدليل الثالث: ما ورد من السنة المشرفة من تحريم القول في القرآن بالرأي ومنه:-

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٧-٢٤٨.

(٣) النحل: ٤٤.

(٤) الأعراف: ١٧٦، الحشر: ٢١.

(٥) محمد: ٢٤.

(٦) النساء: ٨٣.

أ - قوله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» رواه الترمذي عن ابن عباس - رضى الله عنهما .

ب - قوله ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ» رواه أبو داود عن جندب بن جنادة. وأجاب المجوزون عن هذين الحديثين بما يأتي:

١ - أن الحديثين محمولان على مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فِيمَا هُوَ مَمْنُوعٌ مِنْ تَفْسِيرِهِ أَصْلًا كَمِثْلِهِ الْقُرْآنُ، ومشكله مما لا يعلم إلا بالنقل الصحيح عن المعصوم ﷺ.

٢ - أنهما محمولان فيمن قال في القرآن برأيه وهو يعلم أن الحق بخلافه كأصحاب المذاهب الفاسدة.

٣ - أنهما محمولان على قول مَنْ يفسر بغير مستند من نقل، أو لغة صريحة دالة على البيان.

الدليل الرابع: ورد المنع عن الصحابة والتابعين أن يفسر أحد القرآن برأيه، بل كانوا يهابون تفسير القرآن ويعظمونه، ويتحرجون أن يقولوا فيه باجتهادهم.

١ - سئل أبو بكر - رضى الله عنه - في تفسير حرف من القرآن فقال: «أى سماء تظلى، وأى أرض تقلنى، وأين أذهب، وكيف أصنع إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى» .

٢ - وما ورد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم، وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع شيئاً .

٣ - وهذا رجل يقابل مجاهد بن جبر فيقول لمجاهد: «أنت الذى تفسر القرآن برأيك؟ فبكى مجاهد، ثم قال: إني إذا لجرىء، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبی ﷺ ورضى عنهم»^(١).

وأجاب المجوزون عن هذه الأقوال الواردة فى الدليل بما يأتى:

أ - أن قول هؤلاء إنما كان منهم ورعاً واحتياطياً، وتواضعاً أولاً، مخافة ألا يبلغوا ما يعتقدونه أنه مراد الله - تعالى - لأنهم كانوا يرون التفسير بمثابة الشهادة على الله - تعالى - أنه عنى هذا فأمسكوا وأحجموا خوف ألا يبلغوا هذه الغاية.

ب - أن إحجامهم عن التفسير كان فيما لم يعرفوا وجه الصواب فيه.

ج - أن امتناع أحدهم إنما كان لوجود من يعتقد أنه أفضل منه فى هذا الباب يكفيه مؤنة التفسير، وإلا فما كان ليردد أبداً إذا سئل^(٢).

ومع ردّ المجوزون على أدلة المانعين وإبطالها إلا أنهم مع ذلك أثبتوا صحة ما ذهبوا إليه من جواز التفسير بالرأى أى بالاجتهاد فى الآيات التى لم يرد فيها عن الأجيال الثلاثة نقلاً صحيحاً بأدلة كثيرة أهمها ما يلى:

الأول: أن الله - تعالى - حث على تدبر القرآن، وعلى أن فى القرآن الكريم ما ينبغى للعلماء وأولى الألباب أن يتدبروه ويستنبطوه، ويصلوا إليه بحقولهم فى آيات كثيرة منها:

أ - قوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك ليتدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾^(٣).

ب - وقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾^(٤).

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٠٧.

(٢) مناهل العرفان فى علوم القرآن للزرقانى ١/ ٥٦ - ٥٧.

(٣) ص: ٢٩.

(٤) محمد: ٢٤.

جـ - وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (١).

ولا يعقل أن يكون تفسير لم يستأثر الله - تعالى - بعلمه محظوراً على الناظر المتدبر مع أنه طريق العلم وسبيل المعرفة.

الثاني: ثبت عن الصحابة الكرام - خاصة الذين كانت لهم عناية بالتفسير منهم - أنهم قرأوا القرآن، واختلفوا في تفسيره فيما لم يسمعه من النبي ﷺ ولو لم يكن التفسير بالرأى جائزاً لم اختلفوا وأبان كل منهم عن وجهة نظره واجتهاده في الآيات.

الثالث: لو كان التفسير بالرأى غير جائز لما كان الاجتهاد جائزاً ولتوقف الأحكام، وهذا بين البطلان.

الرابع: ثبت أن النبي ﷺ دعا لابن عباس - رضى الله عنهما - قائلاً في دعائه: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل».

ولو كان التفسير مقصوراً على السماع والنقل لما كانت هناك فائدة لتخصيص رسول الله ﷺ ابن عباس بالدعاء.

هذا ولو دقت النظر في حذرين القولين، وفي أدلتهم: لو جدت أن كلا منهما يحاول أن يتمسك برأيه ويطير به فرحاً، ويتحفك بالأدلة كأنه أتعك، وأبطل حجة الخصم مع العلم بأن الخلاف لا يعدو أن يكون خلافاً لفظياً لا حقيقياً.

ومع ذلك فلا يجوز - عند من يقول بعلم التفسير - أن يقدم على كتاب الله ليشره عن الله - تعالى - ما لم يستجمع شروط المفسر وأدواته وهي كما يلي:

(١) النساء: ٨٣.

أولاً : شروط المفسر :

ينبغي ألا يتصدى للتفسير من لم يُحِط بمجمل الشروط التي حددها العلماء لمن يتصدى للبيان عن مراد الله - تعالى - وأهمها:

١ - أن يكون المفسر صحيح الاعتقاد بالله تعالى، فإن صحة العقيدة تقى المفسر من تحريف النصوص، وخيانة الآيات، والوقاية من الزلل فيها.

٢ - التخلي عن الأهواء المذهبية، والتخلي بالحق لوجه الحق دون لى أعناق الآيات لمذهب يروج له، أو عقيدة خاصة ينحرف بالقرآن إليها.

٣ - ألا يخوض فى التفسير الاجتهادى حتى يتم له النظر والإثبات فى التفسير بالمأثور على النحو التالى:

أ - أن يطلب التفسير من القرآن نفسه، فإن القرآن يشرح بعضه بعضاً فى آيات مختلفة.

ب - ثم إن لم يجد: طلب التفسير من السنة فإن النبى ﷺ هو المبين الحقيقى عن الله - تعالى - ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ (١).

ج - ثم إن لم يجد: طلب التفسير فى أقوال الصحابة، فهم أقرب الناس جميعاً إلى رؤية الوحي، ومعرفة الوقائع، وأقرب إلى التقوى وسمت النبى ﷺ، وأقرب الأجيال جميعاً إلى الملكة اللغوية التى نزل بها القرآن الكريم.

د - ثم إن لم يجد: اجتهد فى تفسير آيات الذكر الحكيم بما حصل من الأدوات الضرورية واللازمة لكل مفسر وهى تحصيل العلوم المعينة على التفسير والبيان وأهمها:

(١) النحل : ٤٤ .

- ١ - العلم باللغة العربية. ٢ - العلم بالنحو. ٣ - العلم بالاشتقاق.
- ٤ - علم الأبنية. ٥ - علوم البلاغة الثلاثة: المعانى، والبيان، والبديع.
- ٦ - علم القراءات. ٧ - علم الكلام. ٨ - علم أصول الفقه.
- ٩ - علم أصول الدين. ١٠ - علم السيرة والقصص.
- ١١ - علم النسخ والمنسوخ. ١٢ - علم الحديث. ١٣ - علم الموهبة.

ثانيًا: آداب المُصنِّع:

- ١ - حُسْن النية، وسلامة القصد لله تعالى.
- ٢ - حُسْن الخلق.
- ٣ - الورع والتقوى.
- ٤ - تحرى الصدق والضبط فى النقل.
- ٥ - عِزَّة النفس.
- ٦ - التواضع ولين الجانب.
- ٧ - الجهر بالحق.
- ٨ - التروى والأناة فى سرِّد التفسير.
- ٩ - حُسْن الإعداد وطريقة الأداء.
- ١٠ - تقديم مَنْ هو فى العلم أولى منه.

والله أعلم



نموذج من مناهج المفسرين بالرأى المحمود فخر الدين الرازى، وكتابه، مفاتيح الغيب

التعريف به:

هو : أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على . تنحدر أصوله إلى الأصل العربى فهو : بكبرى من بنى تميم .

مولده:

ولد أبو عبد الله فخر الدين : فى مرو من كور طبرستان فى سنة ٥٤٤ هـ .
ونسب إليه واشتهر بهذه النسبة : فخر الدين الرازى وتوفى بها سنة ٦٠٦ هـ .

تلقية العلم:

أخذ أكثر علومه عن أبيه خطيب الرى فى زمانه: ضياء الدين عمر، كما أخذ عن الكمال السمعانى، والمجد الجيلى ، وكثير من علماء عصره . حتى أصبح فريد عصره، ومتكلم زمانه .

كان إماماً فى علم الكلام، والعلوم الطبيعية، كما كان إماماً فى العلوم العقلية وعلوم اللغة، وشُدَّت الرحال إليه لتلقى العلم على يديه من مختلف الأقطار .
وصار فلتة زمانه فى الوعظ باللسانين العربى ، والفارسى القديم، وربما لحقه الوجد وهو يعظ فيكثر البكاء .

مؤلفاته:

خَلَّف الرازى مجموعة من المصنفات كتب لها القبول وتناولتها أيدي الطلاب بالبحث والدراسة إلى يومنا هذا فى مختلف الفنون وأهمها :

١ - البيان والبرهان فى الرد على أهل الزيغ والطغيان .

٢ - المطالب العالية فى علم الكلام .

٣ - المحصول فى أصول الفقه .

٤ - الملخص فى الحكمة .

٥- السر المكنون فى الطلبات.

٦- شرح الإشارات لابن سينا.

٧- شرح الحكمة لابن سينا.

٨- شرح الوجيز فى الفقه للغزالي .

٩- شرح المفصل فى النحو للزمخشري.

ثم : مفاتيح الغيب فى التفسير ويسمى أيضاً « التفسير الكبير ».

منهج الفخر الرازى فى تفسيره

يقع « مفاتيح الغيب » فى ثمانية عشر مجلداً. وهناك خلاف على أن الفخر الرازى أتم تفسير القرآن كله أو أن الذى أكمله هو: نجم الدين القمولى المتوفى سنة ٨٢٨هـ أو شهاب الدين الحوى المتوفى سنة ٦٣٩هـ.

وأياً ما كان فإن الفخر الرازى ترك لنا ذخيرة فى تفسير كتاب الله العزيز على منهج المفسرين بالرأى المحمود حظيَ بشهرة واسعة بين العلماء، لأن الكتاب يمتاز عن غيره بالأبحاث الكثيرة فى نواح شتى من العلوم حتى قال ابن خلكان فى «فيات الأعيان»: « جمع فيه كل غريب وغريبة ».

وأهم ما نلاحظه على الإمام فخر الدين الرازى فى منهجه التفسيري ما يلى :

١- المناسبات : يعتبر كتابه أهم تفسير لذكر مناسبات السور بعضها لبعض، بل لذكر الآيات بعضها لبعض، وفى كثير من الأحيان يذكر مناسبة آخر الآية والسورة وختمها لأولها، وربما لا يكتفى بذكر مناسبة واحدة بل يعددها. وهو فى هذا أثبت بأن كلام الله - تعالى - على غاية من الترابط والدقة والإحكام وهو ما لا نجده فى تفسير آخر.

٢- الاهتمام بالعلوم الرياضية والكلامية : الفخر الرازى ينتهز فرصة تفسير الآيات التى يلمح فيها أية إشارة إلى العلوم الطبيعية والكونية كالفلك، والهيئة، والطب، فيتعرض لمباحثها، ويستطرد فيها بشكل ملئت .

٣- اهتمامه بالرد على المعتزلة والفرق الكلامية : والرازي كَسْنَى يعتقد ما يعتقد أهل السنة لا يترك فرصة من آية قرآنية تتعرض لها المذاهب الكلامية خاصة المعتزلة حتى يفند أقوالهم فيها، ويرد عليها.

أما ذكر أقوالهم فإنه يستطرد فيها استطراداً يأخذ بالألباب حتى أن صاحب المذهب نفسه لا يستطيع أن يقرره مثله.

أما تفنيد أقوالهم والرد عليها فلا يكاد يصل إلى المرتبة السابقة من التقرير ولذلك ظن بعض العلماء في الفخر الرازي أنه ربما يميل إلى هذه المذاهب لقصوره في الرد بالنسبة لما برز فيه من التقرير.

لكن الطوفى يرد على ذلك بقوله : « لعل سببه أنه كان يستفرغ قواه في تقرير دليل الخصم، فإذا انتهى إلى تقرير دليل نفسه لا يبقى عنده شيء من القوى ».

٤- إبرازه ووقفه عند آيات الأحكام : وأيضاً فالفخر الرازي كان شافعي المذهب متمكناً من الدراسات الفقهية، فكان إذا وقف عند آية من آيات الأحكام فتدحها تفنيداً جيداً وانتصر لمذهب الشافعي انتصاراً ظاهراً.

٥- ترتيب المسائل : وأبرز ما في منهج الرازي أيضاً أنه كان يورد الآية الكريمة ثم يذكر عدد ما يمكن أن يكون فيها من مسائل فيقول هذه الآية فيها سبع مسائل : الأولى : كذا وكذا، والثانية : كذا وكذا.

ولعل القرطبي تأثر بهذه الطريقة الجيدة في الترتيب والتنسيق .

٦- ذكر اللغة والقراءات وأسباب النزول : ولا شك أن الرازي لم يفته في منهجه الاعتماد على ما اعتمد عليه غالب المفسرين في مناهجهم كالاهتمام بذكر أسباب النزول، والقراءات، واللغة، والاستدلال بالشعر على مفردات القرآن الكريم.

ولك الآن أن تنظر في « مفاتيح الغيب » . لتكتشف بنفسك ما عرضناه عليك إجمالاً من بعض مناهجه، ولتبحث أنت بنفسك أيضاً عما عساه نكون قد غفلنا عنه.

نموذج من التفسير بالرأى المذموم

الزمخشري وكتابه «الكشاف»

توطئة : ابتليت الأمة الإسلامية بالفرقة والاختلاف منذ استشهاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فألبسها الله شيعاً، وجعلها فرقاً، وأذاق هذه الفرق بعضها بأس بعض، فكانت كما أخبر المصطفى ﷺ: «وستفترق هذه الأمة ثلاثاً وسبعين فرقة كلها فى النار إلا ما كان عليه أنا وأصحابى».

هذا: وقد تناولت كل فرقة من هذه الفرق كتاب الله - عز وجل - تفسره بما ارتضته لنفسها من اعتدال أو تطرف، فظهرت كتب تناسير الفرق العقائدية كأنها المرايا التى تنعكس عليها صور المفسرين لها على اختلاف مذاهبهم وتباين منازعهم، ولا غرو فكل إناء ينضح بما فيه^(١).

والذى اشتهر من هذه الفرق وعظم أمره خمس فرق وهم:

١ - أهل السنة. ٢ - المعتزلة. ٣ - المرجئة. ٤ - الشيعة. ٥ - الخوارج.

وقد تناولنا نماذج من تفاسير أهل السنة سواء كان بالمأثور أو بالرأى الراجح فيما سبق أن قدمناه بين يديك وهى تفاسير ابن جرير الطبرى، والفخر الرازى والقرطبى. وهذه كلها من تفاسير أهل السنة وإن كانت فى ألوان مختلفة.

أما الآن فنعرض لتفاسير «الفرق العقائدية» وقد اخترنا فرقة «المعتزلة»، واخترنا كتاب «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل» لجاد الله الزمخشري.

(١) مناهل البرقان ١/ ٦٩.

أما المعتزلة : فكان أول ظهورهم ونشأتهم فى الدولة الأموية على يد «واصل بن عطاء» المتوفى سنة ١٣١ هـ وكان أول أمره تلميذاً للحسن البصرى، وهو الذى سمّاه معتزلياً عندما بدأ يجيب عن الحسن البصرى فى مسائل يتكلم منها بالعقل المجرد الذى ترفضه الناس عن مرتكب الكبيرة أنه «فى منزلة بين المنزلتين».

ومن هنا قال الحسن البصرى لواصل: «اعتزلنا واصل» فصارت علماً على هذا المذهب، وبدأوا يتكلمون فى مسائل كثيرة كالقضاء والقدر وغيرهما ثم ما لبث أن استقر مذهبهم على أصول خمسة هى:

١ - التوحيد : وهو لبُّ مذهبهم، تأثروا فيه بالإباضية، وهم أول من قالوا به، وبنوا عليه رأيهم القائل: باستحالة رؤية الله - سبحانه وتعالى - يوم القيامة، وأن الصفات ليست شيئاً غير الذات.

٢ - العدل : وهو قائم عندهم على أساس أن الله تعالى لم ينشأ جميع الكائنات ولا خلقها ولا هو قادر عليها، لأن أفعال العباد لم يخلقها الله تعالى. لا خيرها ولا شرها، ولم يرد إلا ما أراد الله به شرعاً، وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئته.

٣ - الوعد والوعيد: فمعه أن الله يجازى من أحسن بالإحسان، ومن أساء بالسوء لا يغفر لمرتكب الكبيرة ما لم يتب ولا يقبل فى أهل الكبائر شفاعاة ولا يخرج أحداً منهم من النار.

٤ - المنزلة بين المنزلتين : وهو أن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً.

٥ - وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد قالوا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون بالقلب إن كفى، وباللسان إن لم يكف القلب، وباليدين إن لم يغنيا، وبالسيف إن لم تكف اليد.

ومعلوم أن مذهب أهل السنة والجماعة لا يتفق مع مذهب المعتزلة في القول بهذه الأصول. والمعتزلة ينكرون الأحاديث الصحيحة إذا عارضت مذهبهم. يقولون بأن كل محاولاتهم في التفسير مرادة الله تعالى. كما يعتمدون اعتماداً قوياً على اللغة في إثبات ما يذهبون إليه من هذه الأصول.

كما يتذرعون بالفروض المجازية إذا بدا لهم ظاهر القرآن غريباً.

الزمخشري وكتابه :

كان الزمخشري عالماً عبقرياً فذاً في علوم النحو، واللغة، والأدب، والتفسير، ويشهد لأرائه في العربية علماء الأندلس. والزمخشري معتزلي الاعتقاد، حنفي المذهب، ألف كتابه الكشاف في التفسير ليدعم به حقيقته ومذهبه. واعتزاليات الزمخشري في تفسيره دليل على حذقه ومهارته.

قيمة الكشاف العلمية :

بصرف النظر عما في الكشاف من الاعتزال، فإن هذا الكتاب يعد بحق قيمة علمية فريدة لم يسبق مؤلفه إليه لما أبان فيه عن وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن، ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته، وليس مثل الزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر لغته لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم، لا سيما لغة العرب، وأشعارهم والإحاطة بعلوم البلاغة والبيان، والإعراب، والأدب ولقد أضفى هذا النبوغ العلمي والأدبي على تفسير الكشاف ثوباً جميلاً لفت إليه أنظار العلماء^(١).

ومهما قيل في وصف الكشاف وإطرائه من ناحية إثباته لإعجاز القرآن فإن ما في الكتاب من اعتزال جعل كثيراً من أقلام العلماء تنال منه وتضعه في هذا

(١) التفسير والمنسرون ١/ ٤٠٧.

الموضع الذي هو فيه وهو أنه منْضَوٍ تحت مسمى «تفسير الفرق المبتدعة» أو التفسير
بالرأى المذموم.

ويمتاز كتاب الزمخشري «الكشاف» بأمور منها:

✽ خلوه من الحشو والتطويل.

✽ سلامته من القصص والإسرائيليات.

✽ عنايته بعلوم البلاغة.

✽ اعتماده على لغة العرب.

✽ بجعل مسائله على طريقة السؤال والجواب.

مبحث فى: التفسير الفقهى «الجامع لأحكام القرآن للقرطبى»

توطئة: كما كان التفسير نطفة فى ظهر علم الحديث لم تشب عن الطوق إلا بعد معرفة الأمة للتدوين.

ولقد سبق أن قلنا بأنه لما عرف الناس التدوين عرفوا التبويب فاستقل علم التفسير عن علم الحديث وبدأ يستقل بنفسه فى كتب ودواوين كان من أهمها كتب التفسير بالمأثور المنقول عن الأجيال الثلاثة الأولى، فاستقر علم «التفسير العام» وكان تفسيراً «موسوعياً» يشمل جميع أنواع التفسير وألوانه التى يعرفها المعاصرون فى زماننا على سبيل الاستقلال: كتفسير المبهمات، وتفسير المتشابهات، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، أو ما أطلق عليها: «التفاسير المتخصصة».

فإن هذه التفاسير المتخصصة كانت هى الأخرى «أجنة» فى ظهر علم «التفسير العام» فما لبث الباحثون أن نقبوا على هذه التفاسير فى فنونها المختلفة حتى أخرجوها عن التفسير العام وأفردوا لها مؤلفات على سبيل الاستقلال. من هذه الألوان المختلفة يبرز لنا: التفسير الفقهى. أو: تفسير آيات الأحكام.

لمحة تاريخية سريعة: ولا شك أن النبى ﷺ كان معنياً بطبيعة الحال حين كانت تنزل آية من آيات الأحكام أن يبينها للناس ويشرح ما فيها من أحكام شرعية. ثم جاء جيل الصحابة - رضى الله عنهم - بعدما قبض رسول الله ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى، فكانوا يقرءون القرآن، فما فهموه بسليقتهم بحسب معطيات لغتهم التى يملكونها وميراثهم من النبى ﷺ كانوا يفسرونه ويشيرونه للناس. وربما استجدت وقائع وأحداث على الأمة الإسلامية فتكلموا فيها واستنبطوا لها من آيات القرآن الكريم أدلة يستندون إليها.

ومن هنا كان الخلاف طبيعياً حول تفسير الآية التي تحمل ألفاظها هذا الخلاف. وإن بدت في ذلك الوقت نادرة الحدوث من ناحية، ومن ناحية أخرى لم تكن خلافاً بالمعنى الفنى الذى يفسد للصحة وُدًا، بل كثيراً ما كان أحدهما يتنازل للآخر عما فهمه ويرجع إلى قول صاحبه.

حتى خلف من بعدهم أجيال برزت فيها حركة فقهية نشطة نتيجة سياحة المسلمين من السلف في بلاد المسلمين ورؤيتهم لوقائع لم يعتادوها، فظهر الأئمة المجتهدون كأبى حنيفة، ومالك، والشافعى، وأحمد بن حنبل - يرحم الله الجميع. وما لبث أن وضع كل إمام قواعد كلية يستند عليها في صحة استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية في الكتاب والسنة. وبدأت تظهر الكتب التفسيرية لآيات الله - تعالى - طبقاً للحلال والحرام، أو ما عرف بآيات الأحكام، فظهرت طبقاً لظهور هذه المذاهب تاريخياً. ولعل أقدم كتاب في تفسير آيات الأحكام هو:

١ - «الدراية وكنز العناية ومنتهى الغاية وبلوغ الكفاية في تفسير خمسمائة آية» في تفسير آيات الأحكام على مذهب الإباضية. والكتاب لأبى الخوارى: محمد بن الخوارى العماني الإباضى، توفي أول القرن الرابع الهجرى.

٢ - ثم في فقه الحنفية: «أحكام القرآن» للجبصان.

٣ - ثم في فقه الشافعية:

أ - كتاب: «أحكام القرآن للإمام الشافعى» .

ب - كتاب: «أحكام القرآن: للكنيا الهراسى .

٤ - وفي فقه المالكية:

أ - كتاب أحكام القرآن لابن العربي.

ب - كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

٥ - ثم في فقه الشيعة الإمامية:

كتاب: العرفان في فقه القرآن: لمقتداد السيوري من الإمامية الإثنا عشرية.

٦ - وفي فقه الزيدية: الثمرات اليانعة، والأحكام الواضحة القاطعة: ليوسف

الثالثي الزيدي.

القرطبي وكتابه

الجامع لأحكام القرآن الكريم

التعريف به: هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح. أيضاً أصوله عربية كالفخر الرازي: فهو من خزرج الأنصار. ظهر جدوده في الأندلس، وفي قرطبة على وجه التحديد فنسب إليها واشتهر بها فقبل: القرطبي.

كان رحمه الله تعالى: من عباد الله الصالحين، والعلماء العاملين العارفين بالله تعالى، الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيههم من أمور الآخرة. وبلغ من زهده أن ترك التكلف، وصار يمشي بثوب، وعلى رأسه طاقية. وكانت أوقاته كلها بين العبادة، والتصنيف حتى أخرج للناس كتباً انتفعوا بها واستفادوا منها، وأهمها ما يلي:

مصنفاته:

١ - كتاب قمع الحرص بالزهد والقناعة، وردّ دُلّ السؤال بالكتب والشفاعة.

٢ - كتاب التذكار في أفضل الأذكار.

٣ - شرح أسماء الله الحسنى.

٤ - شرح القصص.

٥ - كتاب التذكرة بأمور الآخرة.

٦ - الجامع لأحكام القرآن.

شيوخه:

رحل القرطبي إلى مصر، واستقر بمدينة «منية ابن خصيب محافظة المنيا حالياً في صعيد مصر، ومات بها سنة ٦٧١ هـ. سمع من الشيخ أبي العباس بن عسر القرطبي مؤلف: «المفهم في شرح صحيح مسلم».

منهج القرطبي في تفسيره

كتاب «الجامع لأحكام القرآن» كتاب جامع لأحكام القرآن الكريم حقيقة، حيث استوعب الكتاب جميع أنواع آيات الأحكام في الحلال والحرام. ويقع الكتاب في عشرين مجلداً شمل تفسير كل القرآن الكريم بصفة عامة ووقف على آيات الأحكام بصفة خاصة. يهتم الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - في منهجه في هذا الكتاب بما يلي:

يعلق تعليقات وجيزة تتناول نکات من التفسير في:

١ - اللغة . ٢ - والإعراب . ٣ - القراءات .

يرد على أهل البدع والريب والزيغ والضلالات. ويستدل بأحاديث كثيرة تشهد لما يذكره من الأحكام، ونزول الآيات جامعاً بين معانيها، ومبيناً ما أشكل منها بأقوال السلف ومن تبعهم من الخلف.

يقول الإمام القرطبي في تحديد منهجه هذا: «وشرطى في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائلها، والأحاديث إلى مصنفها فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله». وكثيراً ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهماً لا يعرف

من خرجه إلا من اضطلع على كتب الحديث فيبقى مَنْ لا خبرة له بذلك حائراً، لا يعرف الصحيح من السقيم. وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين إلا ما لا بد منه، وما لا غنى عنه للتبيين. واعتدت من ذلك تبين آيات الأحكام بمسائل تفسر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها فضمنت كل آية تتضمن حكماً أو حكمين فما زاد مسائل أبين فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول، وتفسير الغريب، والحكم. فإن لم تتضمن حكماً ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل».

عدم التعصب: يمتاز القرطبي بميزة فريدة فهو رغم أنه «مالكى المذهب» إلا أننا لا نجد أى بادرة من بوادر العصبية المذهبية، بل كثيراً ما ينقل عن ابن العربي الذى يتناول المذاهب الأخرى خاصة الحنفية بلسانه، وربما عاب عليه القرطبي وانتقده فى ذلك. والقرطبي يحمله الإنصاف إلى حدّ الدفاع عمن يهاجمهم ابن العربي من المخالفين مع توجيه اللوم إليه أحياناً.

وأياً ما كان فإن العلامة القرطبي كان مفسراً نزيهاً، عفاً اللسان، دفاعاً عن أصحاب الآراء الأخرى بصرف النظر عن كونهم من المخالفين^(١).



(١) الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب لابن فرحون : ص ٣١٧ وما بعدها ، التفسير والمنسرون ج ٢ / ٢٧٢ وما بعدها ، مباحث فى علوم القرآن لمناخ القطان ص ٢٨٠ وما بعدها .

الباب الثانى

علم نزول القرآن الكريم

الباب الثانى

علم نزول القرآن الكريم

مبحث فى : وقت نزول القرآن ، ومدته ،

وكيفيته ، وحكمة تنجيده

اختلف الباحثون فى علوم القرآن فى وقت نزول القرآن الكريم، وفى المدة التى نزل فيها .

ويرجع سبب الخلاف فى وقت النزول إلى أن القرآن الكريم نفسه ذكر ثلاث آيات انتظمت وقت النزول وهى :

١ - قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ سورة الدخان - الآية ٣ .

٢ - قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ سورة القدر - الآية الأولى .

٣ - قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ سورة البقرة الآية ١٨٤ .

ففى أى وقت نزل : أفى الليلة المباركة ؟

أو فى ليلة القدر ؟

أو فى شهر رمضان ؟

اتفق المفسرون على أن هذه الآيات يفسر بعضها بعضاً، فقد نزل فى الليلة المباركة التى هى ليلة القدر التى هى فى شهر رمضان .

ولكنهم اختلفوا بعد ذلك فى مدة النزول، وكيفيته على ثلاثة أقوال :

(١) قال الجمهور : نزل القرآن الكريم جملة واحدة إلى بيت العزة فى السماء

الدنيا، ثم نزل بعد ذلك مُنْجِماً على محمد ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة .

١ - واستدلوا لذلك بما رواه البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال :

« بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه .

أُمرَ بالهجرة عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة » .

٢- وما رواه البيهقي والحاكم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أيضا قال:
« أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة ثم
أنزل نجوماً.

(٢) القول الثانى : أن ابتداء نزول القرآن الكريم كان فى الليلة المباركة وهى
ليلة القدر من شهر رمضان ثم تتابع نزوله بعد ذلك مفرقا على الوقائع والأحداث
فى ثلاث وعشرين سنة أى أن القرآن نزل ابتداء منجماً مفرقاً فليس له إلا هذا
النزول فقط .

وهذا قول الشعبى - يرحمه الله تعالى :
واستدل لقوله بقول الله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآن
جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ﴾ (١).

(٣) القول الثالث : أن القرآن الكريم أنزل إلى السماء الدنيا فى ثلاث
وعشرين ليلة قدر أو عشرين ، أو خمس وعشرين، فى كل ليلة قدر منها ما يقدر
الله أنزاله طول السنة .

ومعنى هذا رأى أن القرآن الكريم كان ينزل إلى السماء الدنيا مفرقاً على سبيل
الدعوة، ثم ينزل ما حُصِّ به السنة كلها منجماً على وقائع هذه السنة على رسول
الله ﷺ .

وهذا مذهب بعض المفسرين منهم فخر الدين الرازى ..
كما اختلفوا فى عدد سبب الدعوة التى نزل فيها القرآن الكريم على ثلاثة أقوال
أيضاً:

الأول : أنها ثلاث وعشرون سنة: ثلاث عشرة فى مكة، وعشر فى المدينة.
الثانى : أنها خمس وعشرون سنة: خمس عشرة فى مكة، وعشر فى المدينة.

(١) الفرقان : ٣٢ .

الثالث : أنها عشرون سنة : عشر في مكة، وعشر في المدينة.

وهذا الرأي الأخير هو ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن الضحاك عن ابن عباس -
رضي الله عنهما - قال :

« نزل القرآن جملة واحدة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرَةِ الكرام
البررة الكاتبين في السماء الدنيا، فنَجَّمَتِ السَّفَرَةُ على جبريل عشرين ليلة، ونَجَّمَهُ
جبريل على النبي ﷺ عشرين سنة ».

وقد حقق ابن حجر في « فتح الباري » صحة رأى الجمهور القائل بأن القرآن
نزل أولاً جملة واحدة إلى السماء الأولى في بيت العزة، ثم نزل بعد ذلك منجماً
على الوقائع في ثلاث وعشرين سنة.

أولاً : لصحة الأخبار الواردة في ذلك، وضعف غيرها.

ثانياً : تفخيم أمره وأمر مَنْ نزل عليه كما نقل ذلك السيوطي عن أبي شامة.

ثالثاً : بيان حظ هذه الأمة من أن الله تعالى أرسل إليهم محمداً ﷺ رحمة،
وأُنزل القرآن إلى بيت العزة ليدخل في حدِّ الدنيا، وجاء جبريل بالرسالة والوحي
كأنه تعالى أراد أن يسلم هذه الرحمة من الله تعالى إلى هذه الدنيا، نقل ذلك
السيوطي عن الحكيم الترمذي .

مبحث في : كيفية إنزال القرآن الكريم

مبجل ما ذكره المحررون في علوم القرآن كبدر الدين الزركشي، وجلال الدين
السيوطي أن القرآن الكريم أنزل على محمد ﷺ بلسان عربي مبين لفظاً ومعنى،
منجماً مفرقا على حسب الحوادث والوقائع فيما يخص الحوادث والوقائع أو
ابتداء فيما يتعلق بالأخبار والقصص وذلك لقطعية النصيوص الواردة في هذا
سواء من الكتاب أم من السنة الصحيحة.

فأما الكتاب فمنه:

- ١ - قوله تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ (١).
- ٢ - ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصداقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ (٢).

وأما السنة فمنها:

- ١ - ما رواه البيهقي في شعب الإيمان عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال :
« أنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والانجيل لثلاث عشرة، خلت منه، والزبور لثمانى عشرة خلت منه، والقرآن لأربع وعشرين خلت منه ».
- ٢ - ما رواه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت :
« إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء : « لا تشربوا الخمر » لقالوا : لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل : « لا تزنوا » لقالوا : لا ندع الزنا أبداً ».
- ٣ - ما أخرجه ابن عساكر - عن أبى نضرة - قال :
« كان أبو سعيد الخدرى - رضى الله عنه - يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشى، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات ».
- ٤ - ما أخرجه ابن أشته في كتاب « المصاحف » . عن عكرمة فى قوله تعالى :
﴿ بمواقع النجوم ﴾ : قال :

« أنزل الله القرآن نجوماً ثلاث آيات، وأربع آيات، وخمس آيات ».

مبحث فى : حكمة تنجيم القرآن الكريم

لإنزال القرآن الكريم منجماً مفرقا على سنى الدعوة على مدى ثلاث وعشرين سنة حكماً كثيرة، وأسباباً متعددة، وبواعث هامة أفاض فيها علماء الأمة الأول

(١) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥ .

(٢) البقرة : ٩٧ .

المتكلمون فى القرآن وعلومه: كابن أبى حاتم، وابن أشعث، وأبى شامة، والسبكى، والزركشى، والسيوطى.

ومن الباحثين المعاصرين : صبحى الصالح، ومناع القطان وكثيرون غيرهما
أجملوا هذه الحكم - كما لك أنت - أن تستنبط غيرها وأهمها ما يلى :
(١) تثبت فؤاد النبى ﷺ .

وهو ما ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن
جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ﴾ .

أى كذلك أنزلناه منجماً وليس جملة واحدة بغرض تثبيت فؤادك.

قال ابن شامة فى «الوجيز إلى علوم تتعلق بالقرآن العزيز» :

أى : لنقوى به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد فى كل حادثة كان أقوى
للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه، وتجدد العهد
به، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجنب العزيز، فيحدث له من السرور ما
تقصر عنه العبادة، ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان لكثرة لقاء جبريل.

(٢) التحدى والإعجاز :

ذلك أن لكل نبى معجزة، وكانت معجزات الأنبياء السابقين مسوقة بحسب
مهارة أقوامهم فى فن يعجز عنه فيه سواهم، فتأتى المعجزة على يد نبيهم المرسل
إليهم لتدحض مهارتهم، وتعجز عنهم.

فأعطى موسى - عليه السلام - قوة فوق مهارة السحرة التى كانت منمخرة
علماء فرعون وأعطى عيسى قوة فوق مهارة الطب التى كانت منمخرة بنى
إسرائيل... هكذا.

فلما بعث محمد ﷺ فى قوم جُلّ فخرهم الفصاحة والبلاغة أعطى القرآن
الكريم تحدياً لبلاغتهم وإعجازاً لهم أن يأتوا بمثله، أو ينصفه، أو بعشر سور منه،
أو بآية واحدة.

والقصد من الإعجاز ليس في مجرد الألفاظ ودقة ترتيبها، وبراعة نظمها، ولكن فيما وراء كل حرف من حروف القرآن من الدلالة على معانٍ خفية لا يخطط بها إلا الخالق فيضع الحرف للدلالة على هذا المعنى الخفى الذى لا يعرفه المخلوق. يقول الله جل شأنه ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١).

ولا شك أن نزوله منجماً مفرقاً بضع آيات، أو حتى جزء آية على مدى هذا الزمن الذى امتد ثلاثاً وعشرين سنة أبلغ فى التحدى، وأوقع لثبوت الإعجاز خاصة فيما كان مشركو مكة، ويهود المدينة يسوقونه للنبي ﷺ من أسئلة التحدى بين الحين والآخر ظناً منهم توقيخه وقطعه عن الجواب، فيأتى التنجيم هنا فى مكانه المناسب فى وقته المناسب.

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (٢).

(٣) التدرج فى التشريع :

ذلك أن النبي ﷺ بعث على رأس أمة استفحلت فيها عادات مرذولة متمكنة فى نفوسهم، ملوثة لعقولهم، راسخة فى وجدانهم، ممتزجة بدمائهم كالإعتقاد الجازم بالوهمية الأوثان، وعقرهم للخمر بحيث صارت جل دمائهم التى تسير قلوبهم وعقولهم منها.

فلا يعقل فى تدبير الحكماء أن تنزل هذه الأشياء وأمثالها دفعة واحدة. بل تحتاج إلى التدرج بالعلاج شيئاً فشيئاً.

وهذا معنى كلام أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - الذى أوردناه سابقاً:

« إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب

(١) البقرة : ٢٣-٢٤.

(٢) الفرقان : ٣٣.

الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً» أخرجه البخارى.

هذه الثلاثة أهم أسباب تنجيم القرآن الكريم، وللطالب أن يستنبط من ذلك الشيء الكثير مثل: تيسير الحفظ والفهم، والاستفادة منه فى أصول التربية وذكر تواريخ الأمم ومجاهدة الأنبياء، وقصصهم مع أقوامهم، ومناسبة كل منها لحوادث مشابهة لنبينا محمد ﷺ، وللدلالة على أن القرآن الكريم مع طول زمن تنزيله لا ينفك عن حقيقة جزئية، ولا يتفلسف من حكمة، ولا يقع فيه خلط ولا اختلاف.

١- ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (١).

٢- ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (٢).



(١) النساء : ٨٢.

(٢) الإسراء : ٨٨.

الباب الثالث

علم أسباب النزول

الباب الثالث علم أسباب النزول

نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ منذ أخبره الوحي أن «اقرأ» وكانت هذه أول الآيات حتى ختمت بقوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾.

وما بين أول الآيات وآخرها نزولاً توالى القرآن على مدى ثلاث وعشرين سنة يتنزل به الوحي وكان بشأن نزوله لا يخرج عن قسمين :

الأول : قسم أنزله الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنما كما يقول الزرقاني في «مناهل العرفان». إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق (١). وهذا القسم هو غالب آيات القرآن الكريم.

الثاني : قسم أنزله الله تعالى لسبب من الأسباب الخاصة كحادثة الإفك، وظهار أوس بن الصامت من زوجته خولة بنت ثعلبة ومجادلتها للنبي ﷺ وكأخذ النبي ﷺ للأسرى وعتاب الله تعالى له ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ (٢) وغيرها .

وهذا القسم هو المعنى بهذه المحاضرة، وفيه كتب العلماء بحوثهم، وألفوا الكتب لبيان أسباب النزول، وحصر الآيات التي نزل القرآن بسببها، وبيان فائدته، وطريق معرفته، ومصادره، وصيغته الواردة به، والعمل به عند تعارض الروايات، وهذا ما سنلتقى عليه ضوءاً كافياً فيما يلي : —

مبحث في : التعريف بعلم أسباب النزول وفوائده معرفته

يمكن حصر ماهية هذا العلم بالقول أنه :

« العلم الذي يختص بمعرفة ما لبعض آي القرآن الكريم من سبب نزلت بشأنه، أو سؤال وقعت الآية جواباً عنه في زمن نزول الوحي » .

(٢) الأنفال : ٦٧ .

(١) مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ١٠٦/١ .

علم أسباب النزول يتصل اتصالاً وثيقاً بعلم التفسير حتى قال ابن تيمية فيما نقله السيوطي عنه في «الإتقان»: معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالسبب» (١).

كما نقل عن ابن دقيق العيد: «بيان سبب النزول طريق قوى في فهم معاني القرآن» (٢).

فها هو ذا جلال الدين السيوطي يورد هذه المزاعم، ويرد عليها مبيناً فوائد هذا العلم.

ومن المستحسن أن ننقل فوائد علم أسباب النزول عن السيوطي باعتباره مصدراً أصلياً قديماً، يقول السيوطي (٣).

«زعم زاعم أنه لا طائل تحت هذا الفن لجريانه مجرى التاريخ، وأخطأ في ذلك بل له فوائد:

١ - منها : معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

٢ - ومنها : تخصيص الحكم بسبب النزول عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب.

٣ - ومنها : أن اللفظ قد يكون عاماً، ويقوم الدليل على تخصيصه، فإذا عرف السبب قصر التخصيص على ما عدا صورته، فإن دخول صورة السبب قطعي وإخراجها بالاجتهاد ممنوع، كما حكى الإجماع عليه، ولا عبرة بمن شذ فجاوز ذلك.

٤ - ومنها : الوقوف على المعنى، وإزالة الإشكال، قال الواحدى:

« لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها » (٤).

(١) الإتقان في علوم القرآن ١ / ٨٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الإتقان ١ / ٨٢ - ٨٣ ببعض التصرف .

(٤) الإتقان للسيوطي ١ / ٨٤ .

مثاله : ما أشكل على مروان بن الحكم في قوله تعالى : ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ﴾ فقال : لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لتعذبن أجمعون، فبين له ابن عباس أن الآية إنما نزلت في أهل الكتاب - خاصة - حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وأرووه أنهم بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، فأنزل الله فيهم ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبش ما يشترون لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ﴾ الآية.

٥ - ومنها : دفع توهم الحصر، قال الشافعي ما معناه في قوله تعالى ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه ﴾ الآية. إن الكفار لما أحلوا ما حرم الله، وحرّموا ما أحل الله، وكانوا على المضادة والمحادّة، فجاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال لا حلال إلا ما حرّمتموه، ولا حرام إلا ما أحلّتموه نازلاً منزلة من يقول : لا تأكل اليوم حلاوة فتقول : لا أكل اليوم إلا الحلاوة، والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة فكأنه تعالى قال : لا حرام إلا ما أحلّتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حل ماوراء، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل « (١).

٦ - ومنها : معرفة اسم النازل فيه الآية، وتغيير المبهم فيها لأن بيان المبهم وزوال إبهامه مشيد لردة الفضل إلى أهله كما في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ نزلت في الصحابي الجليل صهيب ابن سنان الرومي. وللمتمعن أن يستنبط ما يشاء من الفوائد.

(١) الإتيان للسيوطي ١ / ٨٤.

مبحث فى : طرق معرفة أسباب النزول ، ومصادره ، وصيغته

إن مصادر علم أسباب النزول وطريق معرفته تتمثل فى :
النقل الصحيح عن مشاهدى الوحي ، ومعانى التنزيل ، وهذا النقل له مصدران :

(أ) أن يكون الراوى صحابياً ، فإذا كان كذلك كان سبب النزول مقبولاً لأن رواية الصحابى المعين للتنزيل له حكم المرفوع إلى النبى ﷺ .
(ب) إذا جاءت الرواية مرسلة عن الصحابى (أى سقط منها الصحابى) فلا تقبل هذه الرواية إلا إذا قويت واعتضدت برواية أخرى ولو مرسلة .
وعلى هذا الأساس فلا مجال للأخذ بالاجتهاد والنظر فى هذا العلم وإنما مصدره الأساسى هو النقل المحرر عن الصحابة والتابعين .

صيغ أسباب النزول

للتعبير عن سبب النزول صيغتان :

الأول : أن يقول الصحابى :

١ - سبب نزول هذه الآية كذا .

٢ - حدث كذا - أو سئل عليه الصلاة والسلام عن كذا فنزلت آية كذا فهذه

الصيغة بشقيها نص صريح واضح فى سبب النزول .

الثانية : أن يقول الصحابى : « نزلت الآية فى كذا » فمعناه أن الآية هذه تتضمن

هذا الحكم وليس هذا سبب نزولها .

والمعول عليه فى هذه الصيغة هو القرائن الدالة على السبب .

مبحث فى : تعارض الروايات فى سبب النزول

يرجع تعارض الروايات فى سبب النزول إلى تعددها وهو نوعان :

الأول : تعدد الروايات فى سبب نزول آية واحدة .

الثانى : تعدد الآيات فى سبب نزول واحد .

أما الأول: وهو تعدد الروايات في سبب نزول آية واحدة؛ وهذه لها ثلاث صور:

(١) الصورة الأولى: أن تكون الروايات الواردة في سبب نزول الآية الواحدة كلها بصيغ غير صريحة في سبب النزول كأن يقول كل راوٍ: «نزلت هذه الآية في كذا» أو «أحسبها نزلت في كذا».

فهذه الصورة لا تعارض فيها، لأن المراد بها التفسير وليس ذكر سبب النزول. إلا في حالة واحدة: وهي ما إذا قامت قرينة على أحد هذه الأسباب بأنه في سبب النزول فحينئذ تتعين هذه الرواية من بين أخواتها لأن تتقدم على الأخريات.

(٢) الصورة الثانية: أن تكون الروايات المتعددة في سبب نزول آية واحدة بعضها صريح الصيغة في الدلالة على سبب النزول، وبعضها غير صريح، فحينئذ يتعين تقديم الرواية المصراحة بسبب النزول على غيرها.

ومثال ذلك قول الله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ (١).

فقد تعددت الروايات في سبب نزولها بعضها مصرح بسببه كحديث جابر - رضى الله عنه - قال: «كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول، فنزلت ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ (٢).

وبعضها غير مصرح به كما جاء عن نافع قال: «قرأت ذات يوم ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ فقال ابن عمر: أتدرى فيم أنزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن».

فهذه الصيغة من ابن عمر غير صريحة في السببية، فتقدم رواية جابر لصراحته بأسباب النزول.

(٢) أسباب النزول للواحدى ص ٦٢.

(١) البقرة: ٢٢٣.

(٣) الصورة الثالثة : أن تكون جميع الروايات الواردة في سبب نزول الآية الواحدة كلها صريحة في الدلالة على سبب نزول هذه الآية.

وهذه الصورة يتفرع عنها عدة صور منها :

١- أن تكون هذه الروايات المصرح بسبب نزولها أحدها صحيح دون الآخر وفي هذه الحالة يقدم الصحيح دونه.

ويمثل السيوطي بحديث جندب البجلي يرويه البخاري عنه قال :

أ- «اشتكي النبي ﷺ فلم يتم ليلتين أو ثلاثاً، فأته امرأة فتالت : يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم يقربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله : ﴿ والضحي والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾ (١).

ب- وأخرجه الطبراني بسنده : « أن جرواً دخل بيت النبي ﷺ فدخل تحت السرير، فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال : يا خولة، ما حدث في بيت رسول الله ﷺ؟ جبريل لا يأتيني فقلت في نفسي : لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فأخرجت الجرو، فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة، فأنزل الله ﴿ والضحي ﴾ إلى قوله ﴿ فترضى ﴾.

قال ابن حجر في شرح البخاري : « قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف، فالمعتمد ما في الصحيحين . (٢)

٢- أن تتساوى الروايات في الصحة،

أ- وفي هذه الحالة يرجح أحد الروايات بكون راويها حاضر القصة مثلاً.

ومثاله : ما ذكره السيوطي أيضاً عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « كنت

(٢) الإتقان للسيوطي ١/ ٩١-٩٢.

(١) سورة الضحى.

أمشى مع النبي ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على حسيب فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حدثنا عن الروح، فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ (١).

وأخرج الترمذي - وصححه ابن عباس - قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: اسألوه عن الروح، فسألوه، فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ الآية - فهذا يقتضى أنها نزلت بمكة، والأول خلافه.

وقد رجح بأن مارواه البخاري أصح من غيره، وبأن ابن مسعود كان حاضر القصة (٢).

ب- وقد يحمل الترجيح على أن الآية قد نزلت عقب سبين أو أكثر على أزمان متقاربة .

ومثاله: ما أخرجه البخاري عن عكرمة عن ابن عباس قال:

« إن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء فقال النبي ﷺ: البينة أو حد في ظهرك، فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟! فأنزل ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ حتى بلغ ﴿ إن كان من الصادقين ﴾ (٣).

وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد قال: جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال: اسأل رسول الله ﷺ: أرايت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتله، أقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ، فغاب السائل، فأخبر عاصم عويمراً، فقال: والله لآتين رسول الله ﷺ، فلأسأله، فأتاه، فقال: إنه قد أنزل فيك وفي صاحبك قرآنا ... الحديث (٤).

(٢) الإثنان للسيوطي ٩٤/١ .

(٤) الإثنان ٩٤/١ .

(١) الإسراء: ٨٥ .

(٣) النور: ٦ .

فهذا مما يجمع بينهما : بأن أول ما وقع له ذلك هلال بن أمية، وصادف مجيء عويمر أيضاً. فنزلت الآية بشأنهما. وإلى هذا مال الخطيب فقال: لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد»، وقال ابن حجر: لا مانع من تعدد الأسباب (١).

ج - فإن لم يمكن الجمع لتباعد الزمن، فإن الترجيح يحمل على تعدد نزول الآية، وتكرره.

ومثاله: ما أخرجه الشيخان عن المسيب قال : « لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أمية، فقال : أى هم قل : لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله .

فقال أبو جهل ، وعبد الله : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ! فلم يزالا يكلمانه حتى قال : هو على ملة عبد المطلب .

فقال النبي ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنه » فنزلت ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ الآية (٢).

وأخرج الترمذى - وحسنه - عن علي - كرم الله وجهه - ، قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان، فقال استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ . فنزلت .

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن مسعود، قال : خرج النبي ﷺ يوماً إلى المتابر، فجلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً، ثم بكى، فقال : إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي، وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي، فأنزل علي ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين .

وفي هذه الأمثلة، وما هو على حالتها يجمع بين نصوصها بتعدد نزول الآية فيها (٣).

(١) الإثنان ٩٥ / ١.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) الإثنان في علوم القرآن ٩٦ / ١.

وأما الثاني : فهو تعدد نزول آيات في سبب واحد.

فقد ينزل في الحادثة الواحدة آيات متعددة في سور شتى.

مثاله : موضوع النساء وذكر الرجال في القرآن دون ذكرهن.

هذا الموضوع المعين كان سبباً في نزول آيات عديدة منها :

١- ما أخرجه ابن جرير وغيره عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : « يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشئ، فأنزل الله ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ (١).

٢- ما أخرجه ابن جرير أيضاً عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : « قلت يا رسول الله : مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ فلم يرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر وهو يقول (إن المسلمين والمسلمات) إلى آخر الآية.

٣- ما أخرجه الحاكم عن أم سلمة - رضى الله عنها - قائت : يغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث ؟ فأنزل الله ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ (٢).

من مفردات هذا العلم الجليل معرفة بعض الجزئيات الآتية التي نذكرها إجمالاً ونحيل تشصيلها إليك في « البرهان للزركشى ١/ ٢٢-٣٥، الإتيقان ١/ ٨٢-٩٩ » وهى :-

قد يتصل بأسباب النزول ومعرفته معرفة ما يسمى بـ « تقديم نزول الآية على الحكم، وقد مثل لها البغوى بقوله تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد وأنت حلٌّ بهذا البلد ﴾ ثم ظهر أثر الحل يوم فتح مكة حين قال ﷺ : « أحلت لى ساعة من نهار ».

(١) آل عمران: ١٩٥ .

(٢) النساء: ٣٢ ، وانظر هذه الأمثلة وغيرها عند السيوطى فى الإتيقان ١/ ٩٧-٩٨ .

قد يتعدد نزول آيات مختلفات في شأن صحابي واحد لتعدد الوقائع بشأنه:
كسعد ابن أبي وقاص نزلت فيه أربع منها آثتان متفرقتان في البقرة، وواحدة في
لقمان، وواحدة في الأنفال» (١).

خصوص السبب وعموم الصيغة، أو يقال : عموم اللفظ وخصوص السبب.
فتد يكون السبب خاصاً وتنزل الصيغة عامة، لينبه على أن العبرة بعموم اللفظ.
وقد قال الزمخشري مثلاً في تفسير سورة الهمزة: «يجوز أن يكون السبب خاصاً
والوعيد عاماً ليتناول كل من باشر ذلك القبيح، وليكون جارياً مسجري التعريض
بالوارد فيه، فإن ذلك أضر له ، وأنكى فيه» (٢).



(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٣-٣٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٣-٣٤.

الباب الرابع

علم معرفة أول وآخر ما نزل

الباب الرابع

علم معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل

هذا علم جليل من علوم القرآن الكريم له أهميته الخاصة التي تتركز أساساً فيما يلي :

١- معرفة تاريخ التشريع الإلهي الذي نزل به الوحي الكريم على رسول الله ﷺ.

٢- التدرج في أحكام الله - تعالى - من خلال معرفة هذا العلم بقدر الطاقة ومناسبة كل حكم لما نزل فيه دون تعارض بين ما نزل أولاً، وما نزل متأخراً عن الأول.

وقد اهتم الباحثون المتقدمون بإبراز شخصية هذا العلم، وعدّوه علماً من علوم القرآن. عدّه السيوطي (١) - في الإثنان - النوع السابع من علوم القرآن، بينما عدّه الزركشي (٢) النوع العاشر، وهذا بحسب اصطلاح كل منهما في تقسيم العلوم، ولا مشاحة في الاصطلاح كما قال العلماء.

هذا وقد اختلف العلماء في تحديد أول ما نزل من القرآن الكريم، كما اختلفوا في تحديد آخر ما نزل منه .

سبب الخلاف؛

ويرجع سبب هذا الخلاف إلى اختلاف النصوص الواردة في بيان أول ما نزل وبيان آخر ما نزل . ذلك أن معرفة هذا الفن لا تقتنى إلا بالنص .

وقد اجتهد كثير من الباحثين المعاصرين اجتهداً مشكوراً مأجوراً إن شاء الله تعالى من أمثال: مناع القطان، وصبحي الصالح ، وغيرهما في توضيح غرض هذا العلم.

(١) الإثنان في علوم القرآن للسيوطي : ٦٨/١ .

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٢٠٦/١ .

ولكننا سنسلك هنا طريقاً آخر للبحث حول هذا الموضوع. وإن كانت الطرق كلها تؤدي إلى الغاية المطلوبة التي هي « معرفة هذا الفن ». حيث نسوق النصوص الواردة، والدالة على بيان أول النزول أو آخر النزول بحسب رواية أصحابها ممن شهدوا التنزيل، وعاصروا واقع الوحي من أصحاب رسول الله ﷺ، ثم نقف هذه الروايات لنخرج منها على أصح فهم إن شاء الله - تعالى - على النحو التالي :

عرض الروايات الدالة على أول ما نزل

القول الأول :

١- أخرج الشيخان في صحيحيهما عن عائشة - رضى الله عنها - قالت :
« أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يأتى حراء فيتحنث فى الليالى ذوات العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة - رضى الله عنها - فتزوده لمثلها، حتى فاجأه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فيه، فقال : اقرأ، قال رسول الله ﷺ : فقلت : ما أنا بقارىء، فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال : اقرأ، فقلت : ما أنا بقارىء، فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال اقرأ، فقلت : ما أنا بقارىء، فغطنى الثالثة، حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ حتى بلغ (ما لم يعلم)، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره ».

٢- وأخرج الحاكم فى « المستدرک »، والبيهقى فى « دلائل النبوة ». عن عائشة - رضى الله عنها - قالت :

« أول سورة نزلت من القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ، وصحاحه .

٣- وأخرج الطبرانى فى « المعجم الكبير ». بسند على شرط الصحيح عن أبى رجاء العطاردى قال :

« كان أبو موسى يقرئنا فيجلسنا حلقاً، عليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ قال : هذه أول سورة أنزلت على محمد ﷺ.

٤ - وأخرج سعيد بن منصور في « السنن » عن عبيد بن عمير، قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ ، فقال له : اقرأ ، قال : وما اقرأ ، فوالله ما أنا بقارئ ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ ، فكان يقول : هو أول ما نزل .

٥ - روى أبو عبيد في « فضائل القرآن » عن مجاهد قال : إن أول ما نزل من القرآن « اقرأ باسم ربك » و « ن والقلم » .

٦ - وروى عن الزهري أن النبي ﷺ كان بحراء إذ أتى ملك بنمط من ديباج فيه مكتوب ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ إلى : (ما لم يعلم) .

فهذه ست روايات كلها صحيحة تدل على أن أول ما نزل هو قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ ويذكرك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

القول الثاني :

١ - روى الشيخان عن سلمة بن عبد الرحمن ، قال : سألت جابر بن عبد الله : أي القرآن أنزل قبل ؟ قال : يا أيها المدثر ، قلت : أو اقرأ باسم ربك ؟ قال : أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ : إني جاورت بحراء فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادي فنظرت أمامي وخلفي ، وعن يميني وشمالتي ، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو - يعني جبريل - فأخذتني رجفة ، فأثيت خديجة ، فأمرتهم فدثروني ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ﴾ .

وهذا الحديث صحيح الرواية ، ودليل قوي لمن يقول أن أول ما نزل : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ .

القول الثالث :

١ - أخرج البيهقي في « دلائل النبوة » ، والواحدى بطرقهما عن عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة « إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء ، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً » .

فقلت : معاذ الله ، ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث .

فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فتص عليه، فقال: إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد... يا محمد...، فانطلق هارباً في الأفق» : فقال : لا تفعل إذا أتاك فأثبت حتى تسمع ما يقول ، ثم اتنى فأخبرنى، فلما خلا ناداه: يا محمد: قل ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ﴾ حتى بلغ (ولا الضالين) وهذا حديث مرسل، ورجاله ثقات (١).

القول الرابع :

١ - نقله السيوطي في « الإثنان » حكاية النقيب في مقدمة تفسيره، أن أول ما نزل (بسم الله الرحمن الرحيم) .

٢ - أخرج الواحدى بإسناده عن عكرمة والحسن قالا: أول ما نزل من القرآن (بسم الله الرحمن)، وأول سورة (اقرأ باسم ربك) .

« أول ما نزل جبريل على النبي ﷺ قال : يا محمد استعذ، ثم قل : (بسم الله الرحمن الرحيم) .

وهذه أيضاً أدلة ثلاثة للقول الرابع على أن أول ما نزل من القرآن الكريم هو : (بسم الله الرحمن الرحيم) .

تحقيق هذه الأقوال :

بعد استعراض نصوص الأقوال الأربعة نجد أن ظاهرها التعارض والتضارب في إثبات أول ما نزل من القرآن الكريم .

والحقيقة أنه ليس ثمة تعارض على الإطلاق بين هذه الأقوال جميعاً، وتحقيق ذلك على ما يأتي :

١ - أن أول ما نزل على الإطلاق هو قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ خلق الإنسان من علق ﴿ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ﴾ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

(١) الإثنان للسيوطي ٧١١ .

أولاً : كثرة الروايات والطرق المروية عن أول ما نزل وأنه على التعيين (اقرأ باسم ربك) مع صحة هذه الروايات كلها .

ثانياً : أن الإستعانة بالبسمة داخلتان في هذه السورة، وفي كل سورة في القرآن الكريم على ما حققه العلماء ما خلا سورة « براءة » فإنها خلت من البسمة. وبذلك يكون القول الرابع مندرج في القول الأول تأصيلاً.

ثالثاً : لا تعارض بين حديث عائشة - رضى الله عنها - وبين حديث جابر - رضى الله عنه - لأنه بالتأمل والنظر يجاب بما أجاب به السيوطي في الإتيان عن إزالة هذا التعارض، وأخص هذه الأجوبة فيما يأتى :

(١) أول ما نزل هو « اقرأ » والسؤال لجابر - رضى الله عنه - كان عن أول سورة نزلت كاملة. و (اقرأ) نزلت فقط إلى (علم الإنسان ما لم يعلم) .

(٢) أن أول ما نزل من الوحي الكريم هو (اقرأ) ثم فتر الوحي بعد ذلك مدة على ما هو معلوم من كتب السيرة، فكان أول ما نزل بعد فتر الوحي هو (يا أيها المدثر قم فأنذر)، فالمراد هنا أولوية مخصوصة لا أولوية مطلقة.

(٣) أن جابراً - رضى الله عنه - أجاب عن سؤال السائل مجتهداً، وليس هو من الرواة عن رسول الله ﷺ، فيقدم عليه رواية عائشة - رضى الله عنها .

(٤) أن الأولوية لآية (يا أيها المدثر)، (أولوية خاصة بالأمر بالإنذار، أى أنها أول آية نزلت في « الإنذار » .

(٥) أنها أولوية بسبب متقدم وهو ما وقع من تدثر النبي بسبب الخوف والرعب مما رآه أول مرة من صورة الملك. وأن (اقرأ) نزلت بغير سبب متقدم.

رابعاً : أما عن القول « الثالث » بأن أول ما نزل هو (الحمد لله رب العالمين) . فقد نقل عن أبى بكر القاضى، فى كتاب « الانتصار » . أن الخبر منقطع (١).

(١) مباحث فى علوم القرآن لمناع الثبطان ص ٦٨ .

كما نقل عن السيوطي أن فيه إرسالاً مع ثقات رجاله أو هو خبر عن نزولها بعد (اقرأ) والمدثر وبهذا يتبين من عرض هذه الروايات أنه لا تعارض بينها، وأنه ثبت أن أصلها هو رواية عائشة - رضى الله عنها - في أن أول ما نزل هو (اقرأ باسم ربك).

مبحث في: ما نزل من القرآن أولاً في موضوعات مختلفة

ذكر السيوطي في «الإتقان» . جملة من الآيات الكريمة نزلت أوائل ما نزلت ولكنه رتبها على موضوعات أفرد لكل موضوع أوائله، وانتقله عنه بترتيب، مع التصرف في النقل للعودة إلى مصادر أخرى على النحو التالي (١):

موضوع القتال:

- ١ - روى الحاكم في «المستدرک»، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : « أن أول آية نزلت في القتال ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ (٢).
- ٢ - روى الحاكم في «الإكليل». قال: « إن أول ما نزل في القتال: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ (٣).

موضوع القتل:

- ١ - أخرج ابن جرير عن الضحاک، أول ما نزل في شأن القتل ﴿ ومن قُتل مظلوماً ﴾ (٤).

موضوع الخمر:

- ١ - روى الطيالسي عن ابن عمر، قال: نزل في الخمر ثلاث آيات: فأول شيء: ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ (٥) الآية، فقل: حرمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله دعنا نتنفع بها - كما قال الله - فسكت عنهم.

(١) الإتقان للسيوطي ٧١/١ . (٢) الحج: ٣٩ . (٣) النوبة: ١١١ .

(٤) الإسراء: ٣٣١ . (٥) البقرة: ٢١٩ .

- ٢- ثم نزلت هذه الآية : ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ (١) فقليل :
حرمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم.
- ٣- ثم نزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ﴾ (٢) فقال رسول الله ﷺ : حرمت الخمر .

موضوع الأطعمة:

- ١- أول آية نزلت في الأطعمة بمكة آية الأنعام : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً ﴾ (٣).
- ٢- ثم آية النحل : ﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ﴾ (٤) إلى آخرها.
- ٣- وبالمدينة ، آية البقرة ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ (٥) الآية.
- ٤- ثم آية المائدة ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ الآية ، قاله ابن الحصار (٦).
- موضوع السجدة:

- ١- روى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال :
أول سورة أنزلت فيها سجدة « سورة النجم ».
- موضوع أول ما أنزل من آيات سورة « براءة »:
- ١- أخرج الفريابي عن مجاهد قال :
أول ما أنزل الله تعالى من سورة براءة ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ﴾ (٧).
- ٢- أخرج أيضاً عن أبى الضحى قال :
أول ما نزل من « براءة » ﴿ إنفروا خفافاً وثقالاً ﴾ (٨).
- ٣- أخرج ابن أشته فى كتاب « المصاحف » عن أبى مالك ، قال :
كان أول براءة ﴿ إنفروا خفافاً وثقالاً ﴾.

(١) النساء : ٤٣ . (٢) المائدة : ٩٠ . (٣) الأنعام : ١٤٥ . (٤) النحل : ١١٤ .

(٥) البقرة : ١٧٣ . (٦) الإنشقاق ١ / ٧٥ . (٧) التوبة : ٢٥ . (٨) التوبة : ٤١ .

ثم أنزلت « براءة أول السورة، فألفت بها أربعين آية ».

٤- وأخرج ابن أشتة في « المصاحف » . أيضاً من طريق داود، عن عامر في قوله تعالى : ﴿ إنفروا خفافاً وثقالاً ﴾ قال :

هي أول آية نزلت في غزوة تبوك، فلما رجع من تبوك نزلت « براءة ». إلا ثمان وثلاثين آية من أولها.

موضوع أول ما نزل من آيات سورة « آل عمران » :

١- أخرج ابن أشتة في « المصاحف » عن سعيد بن جبير ؛ قال :

أول ما نزل من آل عمران : ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ (١).

مبحث في « آخر ما نزل من القرآن الكريم »

كما اختلف الرواة في أول ما نزل اختلفوا كذلك في آخر ما نزل.

وهذه الاختلافات كلها سواء في أول أو في آخر ما نزل خلافاً شكلياً مردداً

إلى :

(١) اختلاف الرواة بحسب اجتهاداتهم الشخصية.

(٢) يحتمل أن كل راوٍ منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بتليل، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو.

(٣) ويحتمل أيضاً أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب (٢).

ولذلك نقل الزركشي في « البرهان » عن القاضي أبي بكر في الانتصار قال :

« وهذه الأقوال ليس في شيء منها ما رفع إلى النبي ﷺ، ويجوز أن يكون قاله

(١) آل عمران : ١٣٨ .

(٢) البرهان للزركشي ١/ ٢١٠ .

قائله بضرب من الاجتهاد، وتغليب الظن، وليس العلم بذلك من فرائض الدين، حتى يلزم ما طعن به الطاعنون من عدم الضبط» (١).

وقد نقل كل من الزركشى فى « البرهان » والسيوطى فى « الإتيقان ». بعض ما روى فى آخر ما نزل ننقله عنهما بعبارة « السيوطى » لأنه أكثر استقصاءً:

آخر آية فى سورة النساء ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلاله ﴾ .

١ - رواه الشيخان عن البراء بن عازب - رضى الله عنه .

※ آية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ﴾ (٢).

١ - روى البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنها آخر ما نزل .

٢ - روى البيهقى عن عمر - رضى الله عنه - مثله .

٣ - روى ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى، قال: خطبنا عمر، فقال: إن من

آخر القرآن نزولاً آية الربا (٣).

※ آية : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ (٤) الآية.

١ - أخرج النسائى من طريق عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال:

آخر شئ نزل من القرآن ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ .

٢ - وأخرج ابن مردويه من طريق سعيد بن جبیر عن ابن عباس - رضى الله

عنهما - بلفظ « آخر آية نزلت » .

٣ - وهى آية رواية ابن جرير من طريق سعيد بن جبیر عن ابن عباس،

٤ - وقال الفريابى فى « تفسيره ». من طريق ابن صالح عن ابن عباس - رضى

الله عنهما - قال : آخر آية نزلت ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ الآية.

وكان بين نزولها وبين موت النبى ﷺ واحد وثمانون يوماً.

(٢) البقرة : ٢٧٨ .

(٤) البقرة : ٢٨١ .

(١) البرهان للزركشى ١ / ٢١٠ .

(٣) الإتيقان للسيوطى ١ / ٧٧ .

٥- وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، قال :

آخر ما نزل من القرآن كله ﴿ وانتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ الآية.

وهاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليالٍ، ثم مات ليلة الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول.

٦- وأخرج ابن جرير مثله عن ابن جريج .

٧- وأخرج من طريق عطية عن أبي سعيد قال : كان آخر آية ﴿ وانتقوا يوماً ترجعون ﴾ .

قال السيوطي معلقاً على آية الربا، وآية الدين المتقدمتين :

« ولا منافاة عندى بين هذه الروايات فى آية الربا ﴿ وانتقوا يوماً ﴾ وآية الدين، لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها فى المصحف، ولأنها قصة واحدة، فأخبر كلٌّ عن بعض ما نزل بأنه آخر، وذلك صحيح، وقول « البراء » آخر ما نزل (يستفتونك) أى فى شأن الفرائض .

﴿ آية : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ (١) .

١- روى الحاكم فى « المستدرک » عن أبى بن كعب، قال: آخر آية نزلت: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى آخر السورة .

٢- روى عبد الله بن أحمد فى « زوائد المسند » وابن مردويه عن أبى بن كعب أنهم جمعوا القرآن فى خلافة أبى بكر، وكان رجال يكتبون، فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة « براءة » ﴿ ثم انصرفوا صرّف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ (٢). ظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن فقال لهم « أبى بن كعب » إن رسول الله ﷺ أقرأنى بعدها آيتين ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى قوله ﴿ وهو ربّ العرش العظيم ﴾ وقال هذا آخر ما نزل من القرآن .

(١) التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) التوبة : ١٢٧ .

قال : فمختم بما فتح به : بالله الذى لا إله إلا هو، وهو قوله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (١).

٣- وأخرج ابن مردويه عن أبى أيضاً : آخر القرآن عهداً بالله هاتان الآيتان ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾.

٤- أخرجه ابن الأنبارى بلفظ « أقرب القرآن بالسماء عهداً ».

٥- وأخرج أبو الشيخ فى « تفسيره عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : آخر آية نزلت ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾.

* آية : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾

١- أخرج مسلم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : آخر سورة نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ .

* سورة المائدة :

١- أخرج الترمذى ، والحاكم عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : آخر سورة نزلت « المائدة » فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه. الحديث .

* سورة «براءة»

١- روى عثمان - رضى الله عنه - قال : براءة من آخر القرآن نزولاً « (٢) » .

قال البيهقى : « يجمع بين هذه الاختلافات - إن صححت - بأن كل واحد أجاب بما عنده .

* آية : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ... ﴾ (٣).

١- أخرج ابن جرير عن معاوية أنه تلا هذه الآية، وقال : إنها آخر آية نزلت من القرآن .

(٢) الإثنان ١/ ٧٩ .

(١) الأنبياء : ٢٥ .

(٣) الكهف : ١١٠ .

قال ابن كثير: هذا أثر مشكل، ولعله أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها، ولا تغير حكمها، بل هي محكمة.

قلت: ومثله ما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس - رضى الله عنهما. قال: آية: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾ (١) هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء.

* آية: ﴿فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل﴾ (٢). قالت أم سلمة - رضى الله عنها - : هي آخر آية نزلت.. إلى آخرها. قال السيوطي معلقاً: قلت وذلك أنها قالت: يا رسول الله أرى الله تعالى يذكر الرجال، ولا يذكر النساء فنزلت.

١ - ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ (٣).

٢ - ونزلت: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ (٤).

٣ - ونزلت هذه الآية، فهي آخر الثلاثة نزولاً، أو آخر ما نزل بعد ما كان ينزل في الرجال خاصة (٥).

* آية ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ (٦).

١ - قال أنس - رضى الله عنه - إنها آخر ما نزل.

* آية: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى﴾ (٧).

قال السيوطي في «الإثنان»: هذا من المشكل، لأن الله أنزلها بعرفة عام حجة الوداع، وظاهرها إكمال جميع الفرائض والأحكام قبلها، وقد صرح بذلك جماعة منهم السدّي فقال: لم ينزل بعدها حلال ولا حرام، مع أنه وارد في آية الربا، والدين، والكلالة أنها نزلت بعد ذلك، وقد استشكل ذلك ابن جرير، وقال: الأولى

(١) النساء: ٩٣. (٢) آل عمران: ١٩٥. (٣) النساء: ٣٢. (٤) الأحزاب: ٣٥.

(٥) الإثنان: ٨/١. (٦) التوبة: ٥. (٧) المائدة: ٣.

أن يتأول على أنه أكمل لهم دينهم بإفرادهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون، ثم أيده بما أخرجه من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً، فلما نزلت براءة نفى المشركون عن البيت، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحدٌ من المشركين، فكان ذلك من تمام النعمة: ﴿وأتممت عليكم نعمتى﴾ (١).



(١) البرهان للزركشى ٢٠٩/١، الإتيان لليوطى ٨١/١، مباحث فى علوم القرآن لنساج التطان ص ٦٩-٧١.

الباب الخامس

علم معرفة المكي والمدني

الباب الخامس علم معرفة المكى والمدنى

لا شك أن الأمة الإسلامية مَعْنِيَةٌ بِأَسَاسِ قِيَامِ حضارتها وهو « الوحي الإلهى ». بصفة عامة سواء كان قرآناً أم سنة .

ولما كان القرآن الكريم هو « الوحي الجلى ». الذى لا مَرِيَّةَ فيه ولا مراء، لذلك أخذ من جهود العلماء أقصى عناية فى الترتيب، والرسم، والقراءة، والتفسير حتى تعددت علومه، وكثرت فنونه، وكلها لكلام الله خادم.

ومن جملة العلوم المهمة فى علوم القرآن الكريم علم معرفة « المكى والمدنى » ولنشرع الآن فى إلقاء بعض الضوء على هذا العلم، لتحدث فيه عن « ماهية هذا العلم، وفائدته، وطريق معرفته، وخصائص المكى والمدنى، وما قيل فى حصر ما هو مكى ومدنى، ونبذة عن كلام بعض المستشرقين.

أولاً : ماهية هذا العلم: بالإستقراء، وتتبع كتابات الباحثين قدامى أو محدثين يمكن تعريف هذا العلم بأحد طريقتين :

١- هو : العلم الذى يختص بآيات القرآن الكريم من حيث الترتيب الزمانى والمكانى ، والشخصى، والموضوعى فى آن واحد.

٢- هو : علم يختص بالترتيب الزمانى، والمكانى، والشخصى، والموضوعى لآيات القرآن الكريم.

وقد كتب الباحثون قديماً وحديثاً :

أ- فمن أهم مصادره الأساسية قديماً :

(١) كتب السنة المشرفة التى لأصحابها سلسلة رواية فيها.

(٢) كتب التفسير بالمأثور.

ب - ومن أهم ما صُنِّفَ فى هذا العلم على سبيل الاستقلال، ومن صُنِّفَ فيه.

(٣) مكّي ، ثم العزّ الدريني ، وإن كنا لا نعرف عن مكان مصنفاتهما شيئاً.

(٤) بدر الدين الزركشي : في كتابه « البرهان في علوم القرآن ».

(٥) جلال الدين السيوطي في كتابه « الإتيقان في علوم القرآن ».

ج - ومن الكتب الحديثة :

(٦) محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه « مناهل العرفان في علوم القرآن ».

(٧) صبيح الصالح في كتابه : « مباحث في علوم القرآن ».

(٨) مناع القطان في كتابه « مباحث في علوم القرآن » وآخرون.

مبحث في : فائدة معرفة المكي والمدني

الأول : أنه من أشرف علوم القرآن، وعليه كان اهتمام الصحابة العلماء كعليّ وابن مسعود ، وابن عباس - رضي الله عنهم .

أخرج البخاري عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : « والله الذي لا إله غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ » الحديث ، ومثله مروي أيضاً عن [عليّ] كرم الله وجهه.

الثاني : أن معرفة المكي والمدني رافد هام من روافد معرفة الناسخ والمنسوخ.

يقول الزرقاني : « تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد، وكان الحكم في هاتين الآيتين أو الآيات مخالفاً للحكم في غيرها، ثم عرف أن بعضها مكّي وبعضها مدني، فإننا نحكم بأن المدني منها ناسخ للمكي نظراً إلى تأخر المدني عن المكي » (١).

للباحثين العاملين في المجالات الآتية :

أ- المفسرون لكتاب الله تعالى : فمن لم يكن على دراية تامة بهذا العلم لا يليق له أن يتصدى للتفسير.

(١) مناهل العرفان ١/ ١٩٥ .

ب - الفقهاء المجتهدون .

ج - الأصوليون المستنبطون للقواعد العامة .

الثالث: التعرف على طريقة عرض الدعوة الإسلامية على الناس في مختلف مراحل نمو المجتمعات .

ففي عرض الإسلام على مجتمع «ما» يبدأ الداعية في التركيز على جانب العقيدة، وتصفية النفوس من الخضوع لغير الله تعالى.. وتكون مادته هي «الرحلة المكية بسورها وآياتها». ثم يبدأ في المرحلة الثانية ببيان الأوامر، والنواهي، والحلال والحرام.. وتكون مادته هي المرحلة المدنية بسورها وآياتها. وللمستنبط أن يعمل فكره لاستخلاص فوائد أخرى كثيرة.

مبحث في طرق معرفة المكي والمدني

اعلم أن طريق معرفة أي علم من علوم الإسلام إنما يعتمد على واحد من الاثنين الآتين، أو هما معاً :

أ- إما على السماع: (أي الرواية والنقل) وهذا هو أصل علوم الحديث، وعلوم القرآن التي تفرعت عنهما سائر العلوم .

ب - أو على القياس (أي الاستقراء العقلي) والنظر في الأدلة، والاجتهاد في استخراج كنوز المعرفة.

وعلم المكي والمدني واحد من العلوم التي تعتمد على هاتين الطريقتين. وقد ذكر العلماء في معرفة المكي والمدني أنه لم يرد فيه شيء عن النبي ﷺ والأجدر لطالب العلم أن ينقل عن الزركشي ما نقله هو عن «أبي بكر الباقلاني» عبارته المشهورة في ذلك من كتاب «الانتصار» فيقول :

« إنما هذا - أي طريق معرفة المكي والمدني - يرجع لحفظ الصحابة وتابعيهم، كما أنه لا بُدَّ في العادة من معرفة مُعظمي العالم والخطيب - وأهل الحرص على

حفظ كلامه، ومعرفة كتبه ومصنفاته من أن يعرفوا ما صنفه أولاً وآخرأ .

وحال القرآن في ذلك أمثل، والحرص عليه أشد غير أنه لم يكن من النبي ﷺ في ذلك قول ولا ورد عنه أنه قال : اعلّموا أن قدر ما نزل بحكمة كذا وبالمدنية كذا، وفصله لهم. ولو كان كذلك منه لظهر وانتشر، وإنما لم يفعل له لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ النسخ والمنسوخ ليُعرف الحكم الذي تضمنهما، فقد يعرف ذلك بغير نصّ الرسول بعينه، وقوله هذا هو الأول المكي، وهذا هو الآخر المدني. وكذا الصحابة والتابعون من بعدهم لما لم يعتبروا أن من فرائض الدين تفصيل جميع المكي والمدني مما لا يسوغ الجهل به لم تتوفر الدواعي على إخبارهم به، ومواصلة ذكره على أسماعهم، وأخذهم بمعرفته، وإذا كان كذلك ساغ أن يختلف في بعض القرآن هل هو مكي أو مدني، وأن يعملوا في القول بذلك ضرباً من الرأي والاجتهاد. وحيث لم يلزم النقل عنهم ذكر المكي والمدني، ولم يجب على من دخل في الإسلام بعد الهجرة أن يعرف كل آية أنزلت قبل إيسلامه: مكية أو مدنية. فيجوز أن يقف في ذلك، أو يغلب على ظنه أحد الأمرين.

وإذا كان كذلك بطل ما توهموه من وجوب نقل هذا أو شهرته في الناس ولزوم العلم به لهم، ووجود الارتفاع فيه» انتهى كلام الباقلاني (١).

وإذا أنت - أيها القارئ - فهمت هذه العبارة خلصت إلى نتيجة وهي:

لا يروعنك اختلاف الصحابة في ترتيب السور كما حدث في مواقف كل من أبي ابن كعب، وابن مسعود وغيرهما، إذ لم يكن خلافاً يؤدي إلى شيء من الأنزعاج، ويبقى الأمر بعد ذلك على الاجتهاد والاستقراء العقلي، وهو ما جعل كثيراً من الباحثين يضعون القواعد والضوابط النظرية لتحديد المكي من المدني، وسنذكرها فيما يلي :

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/١٩١ - ١٩٢ .

أولاً : الفرق بين المكي والمدني

يقول السيوطي في « الإتيقان » :

« أعلم أن للناس في المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة :

أشهرها : أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح، أم عام حجة الوداع، أم بسفر من الأسفار.

أخرج عثمان بن سعد البرازي بسنده إلى يحيى بن سلام، قال : ما نزل بمكة، وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي. وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل في سفر الهجرة « مكي » اصطلاحاً.

الثاني : أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة.

وعلى هذا ثبت الواسطة، فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني.

وقد أخرج الطبراني في « الكبير ». من طريق الوليد بن مسلم عن عثيرة بن معدان عن ابن عامر عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ .

« أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة : مكة والمدينة، والشام » قال الوليد : (يعني : بيت المقدس، وقال الشيخ عماد الدين بن كثير : بل تفسيره : بتوك أحسن).

قلت (أي السيوطي) : ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل بمنى، وعرفات، والحديبية، وفي المدينة : ضواحيها؛ كالمنزل ببدر، وأحد وسلم.

الثالث : أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة^(١).

ولذلك يحلو لبعض المعاصرين من الباحثين أن يقول : إن العلماء في التثريق بين المكي، والمدني نظروا إما إلى المخاطبين، وبعضهم نظر إلى المكان وبعضهم نظر إلى الزمان. يعنون بذلك اختلاف مصطلحهم في تحديد المكي من المدني.

(١) الإتيقان ١/ ٢٣ .

ولذلك لاحظوا بدقة بعض الضوابط والخصائص نذكرها فيما يأتي :

ثانياً : ضوابط ومميزات المكي والمدني

استنبط العلماء ضوابط ومميزات اجتهادية لكل من المكي والمدني على النحو

التالي :

أ- المكي : ضوابطه ومميزاته :

- * كل سورة مفتحة بحروف التهجى (وتسمى حروف التحدى) فهي مكية .
- * كل سورة فيها لفظ (كلاً) فهي مكية ، وهي مذكورة في خمس عشرة سورة في النصف الأخير من القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة .
- * كل سورة فيها قصة آدم وإبليس ، فهي مكية .
- * كل سورة فيها قصص الأنبياء والقرون الماضية فهي مكية .
- * كل سورة فيها آية سجدة فهي مكية .
- * كل سورة فيها (يا أيها الناس) دون ذكر (يا أيها الذين آمنوا) فهي مكية هذا مع أن المكي لوحظ بتمعن النظر فيه أنه :
- ١ - أسلوبه : يعتمد على : إيجاز العبارة ، وقصر الفاصلة ، وجزالة اللفظ ، وقوة الجرس الذي يدق القلوب .
- ٢ - موضوعه : يعالج قضية الإيمان من وحدانية ، وبعث ، وحساب ، وجنة ونار ، وإثبات الرسالة ، وسوق الأدلة والبراهين ، وضرب المثل .
- فهذه المرحلة المكية - إذاً - راعت ظروف : ضعف الإسلام ، وقلة عدد المسلمين ، فتوجهت إلى الصفح والمهادنة بغرض الوصول إلى تثبيت العقيدة ، وقطع دابر الشرك فتركز اهتمام هذه المرحلة على إصلاح الجبهة الداخلية .
- تنبيه هام :

ينبغي أن يعرف طالب العلم أن هذه الضوابط والمميزات ليست قطعية . وإنما

هى مجرد اجتهادات نظرية، وكل واحد منها «منقوض» بمثال أو أكثر، مما يدل على أن الحكم فيها ليس على الجميع، وإنما على المجموع. وانظر إلى مايلى :

✽ ضابط حروف التهجى، وقع منه فى «المدنى» سورتي البقرة وآل عمران.

✽ ضابط آدم وإبليس فى «البقرة» وهى مدنية لا مكية.

✽ ضابط «يا أيها الناس» فى «النساء» وهى مدنية لا مكية وقس على ذلك.

ب- المدنى : ضوابطه ومميزاته :

✽ كل سورة ذكر فيها النفاق والمنافقين فهى مدنية، لأنه لم يكن بمكة نفاق أصلاً، وإنما إيمان مطلق، أو كفر بواح.

✽ كل سورة فيها حدٌّ، أو أمر بفريضة فهى مدنية.

✽ كل سورة ذكر فيها «أمرٌ بالجهاد والقتال» فهى مدنية.

✽ كل سورة فيها جدال مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهى مدنية.

✽ كل سورة فيها خطاب للمؤمنين غالباً.

هذا أيضاً مع أن المدنى لوحظ بإمعان النظر والتدبر فى قراءته أن له مميزات فى:

أ- أسلوبه: يعتمد على طول العبارة، وسلاسة الجرس، ومخاطبة العقل، كما أنها ذات مقاطع طويلة.

ب- موضوعه:

- ١- دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بالإسلام، وتبكييت إخفائهم ما أنزل الله فى كتبهم بشأن دعوة محمد ﷺ وشخصه.
- ٢- كشف حقائق النفاق والمنافقين، وتحليل ما فى داخل نفوسهم، والتحذير من خطرهم.
- ٣- فرض الأحكام الشرعية : وإعلان المبادئ التى يقوم عليها الدين الجديد من عبادات، ومعاملات، وأحوال شخصية، وعلاقات دولية سلماً أو حرباً، أو عهداً ومواثيق.

فهذه المرحلة المدنية - إذاً - راعت ظروف الدعوة الإسلامية في ناحيتين هامتين:

الأولى : إعداد الجبهة الداخلية ليشتمل هذا الإعداد كافة الأنظمة التي تقوم عليها المجتمعات المنظمة، من تشريعات قانونية، وأنظمة اجتماعية أسرية، أو إقتصادية، أو سياسية، أو حربية .

واقتراع جذور النفاق، واستئصال شافة المنافقين باعتبارهم فئة معوقة ومثبطة لهمة الدعوة.

الثانية : الإعداد للعمل الخارجى : وغايته تحرير الإنسان فى كل مكان من ربة الكفر والشرك إلى نور الإيمان بالله والعبودية له وحده، وشمل فى ذلك :
أ- الدعوة بالرفق واللين بواسطة البعوث وإرسال الكتب .

ب - تجهيز الجيوش وإعداد الجند، وترتيب الأجناد.

وما سبق أن ذكرناه فى « تنبيه الطالب ». حول خصائص ومميزات المكى نعود لنذكره به أيضا هنا. وهو أن هذه الضوابط والمميزات إنما هى أمور استقرائية تختلف فى كل مسألة، فالحكم فيها على « المجموع ». لا على الجميع .

مبحث فى : حصر المكى والمدنى وكلها

(مائة وأربع عشرة سورة)

أسهب كل من الزركشى والسيوطى فى حصر وتحديد المكى والمدنى وتوابعهما، وسأذكر لك ذلك إجمالاً، وأحيلك على هذين الكتابين إن أحببت الإسهاب وزيادة المعلومة^(١).

(١) هذا الحصر مرتب حسب ترتيب سور مصحف عثمان، أما عند الزركشى والسيوطى فبى مرتبة طبناً لروايات الرواة حسب نزولها فلم نشأ أن نذكرها هنا بنفس نظامها لأنه خاص بعلم أول مانزل وآخر ما نزل وعلى كل فراجعهم عندهما: (البرهان - الجزء الأول من ١٩٢-٢٠٥، الإتيقان - الجزء الأول من ٢٤-٥٠)،

(١) السور المدنية : أصح ما قيل فيها أنها عشرون سورة :

(١) البقرة.	(٨) الأحزاب.	(١٥) الممتحنة.
(٢) آل عمران.	(٩) محمد.	(١٦) الجمعة.
(٣) النساء.	(١٠) الفتح.	(١٧) المنافقون.
(٤) المائدة.	(١١) الحجرات.	(١٨) الطلاق.
(٥) الأنفال.	(١٢) الحديد.	(١٩) التحريم.
(٦) التوبة.	(١٣) المجادلة.	(٢٠) النصر.
(٧) النور.	(١٤) الحشر.	

(٢) السور المختلف فيها : اثنتا عشرة سورة هي :

(١) الفاتحة.	(٥) التغابن.	(٩) الزلزلة.
(٢) الرعد.	(٦) المطففين.	(١٠) الإخلاص.
(٣) الرحمن.	(٧) القدر.	(١١) الفلق.
(٤) الصف.	(٨) البسمة.	(١٢) الناس.

(٣) السور المكية : ثنتان وثمانون سورة، وهى باقى سور القرآن الكريم على

حسب ترتيب مصحف عثمان الذى بين أيدينا.

(٤) الآيات المكية فى السور المدنية (١).

١- الأنفال : ٣٣ ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ الآية.

٢- التوبة : ١٢٨ ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى آخر السورة.

٣- الرعد : ٣١ ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كُلمَ

به الموتى بل لله الأمر جميعاً ﴾ إلى هنا.

(١) البرهان للزركشى ١/٢٠٢-٢٠٣.

٤- الحج : أربع آيات ٥٢ - ٥٥ ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ أو يأتيهم عذابٌ يومٍ عقيم ﴾ .
(٥) الآيات المدنية فى السُّور المكية :

١- الأنعام : كلها مكية ماعدا ست آيات هى :

﴿ آية ٩١ ﴾ وما قدرُوا الله حق قدره ﴿ إلى آخر الآية نزلت فى مالك بن الصيف (١) .

﴿ آية ٩٢-٩٣ ﴾ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلىَّ ولم يوح إليه شيء ﴿ (٢) . نزلت فى مسيلمة الكذاب، وعبد الله بن أبى سرح أخى عثمان من الرضاعة، الأول فيه (أو قال أوحى إلىَّ) والثانى فيه (سأُنزل مثل ما أنزل الله) .

﴿ الآيات من ١٥١ - ١٥٣ ﴾ قل تعالوا أتْلُ إلى آخر السورة .

٢- الأعراف : مكية إلا تسع آيات مدنية ١٦٣-١٧١ ﴿ وسئلهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ .

٣- إبراهيم : مكية غير آيتين نزلتا فى قتلى بدر ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ . ٢٨ ، ٢٩ .

٤- النحل : مكية ماعدا الآيات من ٤١ إلى آخر السورة فمدنية ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا ﴾ ٨٨ آية .

٥ - الإسراء : مكية ماعدا الآية ٧٣ ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذين أوحينا إليك ﴾ يعنى ثقيفاً فقد نزلت فى وفدهم .

(١) البرهان للزركشى ١/ ١٩٩ .

(٢) سورة الأنعام : ٩٣ .

٦ - الكهف : مكة : غير الآية ٢٨ فمدنية ﴿ واصبر نفسك مع الذي يدعون ربهم ﴾ نزلت في سلمان الفارسي .

٧ - القصص : مكة غير الآية ٥٢ ﴿ الذين آتيناهم الكتاب - يعنى الإنجيل - من قبله هم به يؤمنون ﴾ - يعنى القرآن، نزلت في أربعين رجلاً من أهل الكتاب قدموا من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب فأسلموا .

٨ - الزمر مكة ، غير الآية ٥٣ ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ .

٩ - سور الحواميم كلها مكة غير الآية ١٠ فى سورة الأحقاف، فمدنية ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ﴾ نزلت فى عبد الله بن سلام .

١٠ - الماعون : مكة إلا أربع آيات ٤-٧ ﴿ فويل للمصلين ﴾ إلى آخر السورة فمدنى .

(٦) منازل بمكة وحكمه مدنى :

١ - منها : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾^(١) نزلت بعد الهجرة فى مكة يوم فتحها .

٢ - ومنها فى المائدة : الآية ٣ ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ الخاسرين ﴾ فى الآية ٥ نزلت يوم الجمعة، والناس وقوف بعرفات فبركت ناقة النبی ﷺ من هيبة القرآن، وهى مدنية لنزولها بعد الهجرة .

(٧) منازل بالمدينة وحكمه مكى :

١ - الممتحنة كلها، وهى فى حاطب بن أبى بلتعة .

٢ - النحل : الآيات ٤١ إلى آخر السورة ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

ما ظلموا ﴿ كلها مدنية والخطاب لأهل مكة.

٣- سورة الرعد : مدنية، وخطابها موجه إلى أهل مكة.

٤- سورة التوبة من أولها إلى قوله تعالى ﴿ إنما المشركون ﴾ الخطاب لمشركي مكة، وهي مدنية.

(٨) ما يشبه تنزيل المدنية في السور المكية:

١- النجم : الآية ٣٢ ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم ﴾ يعنى كل ذنب عاقبته،
(الفواحش) يعنى كل ذنب فيه حدٌ (إلا اللثم). وهو بين الحدين من الذنوب.

الباب السادس

علم معرفة الناسخ والمنسوخ

الباب السادس علم النسخ والمنسوخ

علم النسخ والمنسوخ هو أيضا من العلوم الجارية التي وضعت لخدمة الفقه والأصول فيما يتعلق بترتيب الأحكام، ورفع تعارض أحكامها. وقد اهتم بالكلام في هذا العلم والتصنيف فيه جماعة من السلف والخلف على السواء .

وقد ذكر بدر الدين الزركشى في «البرهان» . أسماء طائفة من العلماء ممن أفرد هذا العلم بالتصنيف منهم .

قتادة بن دعامة السدوسي، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو داود السجستاني صاحب السنن، وأبو جعفر النحاس، وابن العربي، وابن الجوزي، وابن الأنباري وغيره (١).

تمهيد: تعريف النسخ:

النسخ لغة : يطلق على معان منها :

- ١ - الإزالة : تقول : نسخت الشمس الظل ، أى أزالته . ومنه قوله تعالى ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ (٢).
- ٢ - التبديل : ومنه قوله تعالى ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ (٣).
- ٣ - التحويل : ومنه « تناسخ الموارث » . يعنى تحويل الميراث من واحد إلى

واحد.

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشى ٢/ ٢٨.

(٢) الحج : ٥٢.

(٣) النحل : ١٠١.

٤ - النقل : من موضع إلى موضع، ومنه « نسخت الكتاب » إذا نقلت ما فيه حاكياً لخطّه ولفظه.

تنقل الزركشى عن « مكّي » . وهذا الوجه لا يصح أن يكون في القرآن، وأنكر على « النحاس » إجازته ذلك محتجاً بأن النسخ فيه لا يأتي بلفظ المنسوخ، وإنما يأتي بلفظ آخر.

وانتصر الإمام أبو عبد الله محمد بن بركات السعدي لما قاله النحاس بشهادة الآية الكريمة ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ (١).

النسخ اصطلاحاً : يعرف النسخ في اصطلاح العلماء بأنه :

« رفع حكم شرعي، بخطاب شرعي، متراخ في النزول، وصالح للنسخ » ويستفاد من التعريف ما يأتي :

١ - أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً، فإن لم يكن كذلك كعادات الجاهلية مثلاً فلا نسخ.

٢ - أن يكون الدليل على النسخ خطاباً شرعياً، فلا يكون قاعدة وضعيّة مثلاً .

٣ - أن يكون الدليل النسخ متراخياً في الزمن عن الخطاب المنسوخ.

٤ - ألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين، فإن كان كذلك لم يكن نسخاً، بل تأجيلاً لأجل كقوله تعالى ﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ (٢).

(١) البرهان للزركسى ٢/ ٢٩ (والسعدى له كتاب مخطوط بدار الكتب المصرية. مما هو الإيجاز في معرفة

ما في القرآن من النسخ والمنسوخ).

(٢) ١٠٩ : البقرة.

٥- أن يكون بين هذين الدليلين تعارض حقيقى لا سبيل إلى الجمع بينهما بأى وجه من الوجوه .

مبحث فى : ما يقع فيه النسخ ، وأهميته ، وطرق معرفته

حكى الزركشى قول الجمهور: على أنه لا يقع النسخ إلا فى : الأمر، والنهى (١).

وزاد بعضهم: الأخبار، وأطلق ذلك فى كل الأخبار، وقيدوا الآخرون بالتي يراد بها الأمر والنهى .

فلا يقع فى الاعتقادات التى تتعلق بذات الله تعالى ، وصفاته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر ، أو الآداب الخلقية، أو أصول العبادات والمعاملات (٢).

أهمية النسخ

يقدم علم النسخ خدمات جليلة لكل من : المفسرين، والفقهاء والأصوليين حتى لا تختلط الأحكام بتبليبل الناس.

ولقد عرف سلفنا الصالح - رضى الله عنهم - أهمية هذا العلم خاصة فى مسائل الفتيا والقضاء « فقد نقل عن على - كرم الله وجهه - أنه مرَّ على قاض فقال له: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا ، فقال: هلكت وأهلك» (٣).

طرق معرفة النسخ -

- (١) يعرف الناسخ والمنسوخ بالنقل الصريح عن النبى ﷺ، أو عن صحابى يقول آية كذا نسخت آية كذا. هكذا نقله السيوطى عن ابن الحصار.
- (٢) أو بإجماع الأمة .

(١) البرهان للزركشى ٢/ ٢٣.

(٢) مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ٢٣٣.

(٣) الإتيان فى علوم القرآن للسيوطى ٣/ ٥٩.

(٣) أو بمعرفة المتقدم والمتأخر.

قَالَ السيوطي :

ولا يعتمد في النسخ قول عوام المشرّين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح، ولا معارضة بينة، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر في عهده ﷺ .

مبحث في أقسام النسخ

نظر الباحثون في علوم القرآن فوجدوا أن النسخ لا يخلو عن أربع حالات هي :

الأول : نسخ القرآن بالقرآن : وهذا القسم متفق على جوازه ووقوعه عند من يقول بالنسخ ومثاله ، قوله تعالى ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج ﴾^(١)، منسوخة بآية ﴿ أربعة أشهر وعشراً ﴾^(٢).

الثاني : نسخ القرآن بالسنة : وهي نوعان :

(أ) نسخ القرآن بالسنة المتواترة، وقد أجازها الجمهور على أنهما وحى صريح.

(ب) نسخ القرآن بالسنة الأحادية، ومنعه الجمهور لأن القرآن متواتر، والآحاد

ظني فلا نسخ .

الثالث : نسخ السنة بالقرآن : وأجازها الجمهور وقالوا : كالتوجه إلى بيت

(١) ٢٤٠ : البقرة .

(٢) ٢٣٤ : البقرة .

المقدس فقد كان التوجه إلى بيت المقدس ثابتاً بالسنة، ونسخ بثوله تعالى : ﴿ فَوَلَّيْكَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (١).

الرابع : نسخ السنة بالسنة : وهو على أربعة أنواع :

١ - نسخ متواترة بمتواترة ، وهذه جائزة.

٢ - نسخ آحاد بآحاد ، وهذه جائزة.

٣ - نسخ آحاد بمتواترة ، وهذه جائزة.

٤ - نسخ متواترة بآحاد ، وفيها الخلاف بين العلماء على نفس الخلاف الذي بينهم في نسخ القرآن بالسنة الأحادية، والجمهور على عدم جوازهما .

**مبحث في : أوجه النسخ في القرآن ، والحكمة من وقوعه ،
والتعرف على بعض مصطلحاته**

هو على ثلاثة أوجه ننقلها عن الزركشى فيما يأتى :

الأول : ما نُسخ تلاوته، وبقي حكمه، فيعمل به إذا تلقته الأمة بالقبول.

ومثاله : ما روى عن عائشة ، وأبى بن كعب رضى الله عنهما :

« كان مما يتلى الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله ».

قال عمر رضى الله عنه : « لولا أن يقول الناس : زاد عمر فى كتاب الله، لكتبها بيدي » رواه البخارى فى صحيحه معلقاً (٢).

وقد يقال : ما الحكمة فى رفع التلاوة وبقاء الحكم ؟ وهلاً أبقيت التلاوة ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها ؟

(١) ١٤٤ : البقرة .

(٢) البرهان للزركشى ٢ / ٣٥ .

والجواب : إنما كان ذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل
النشوس بطريق الظن من غير طلب أو إلحاح لطريق متطوع به، فيسرعون إلى
الاستجابة بأيسر شئ كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام، والمنام أدنى طرق
الوحي (١).

وبعض أهل العلم ينكر هذا النوع من النسخ، لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا
يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد.

وقد يقال : كيف يقع النسخ إلى غير بدل، والله تعالى يقول ﴿ ما ننسخ من آية
أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾. وهذا وجه ليس له بدل من مثله ؟

ويجيب عن ذلك : بأن كل ما ثبت الآن في القرآن ولم ينسخ فهو بدل مما قد
نسخت تلاوته، وكل مانسخه الله من القرآن مما لا نعلمه الآن، فقد أبدله بما
علمناه، وتواتر إلينا لفظه ومعناه (٢).

الثاني : نسخ الحكم وبقاء التلاوة :

ومثاله : نسخ حكم آية العدة بالحول مع بقاء تلاوة الناسخ والمنسوخ وهذا
النوع هو الذي ألفت فيه التنب، وذكر المؤلفون فيه الآيات المتعددة، وإن حقق
العلماء أنها معدودة، بل ومحصورة في زهاء عشرين آية.

وقد يقال : ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة ؟

والجواب من وجهين : أحدهما : أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل
به فإنه يتلى كذلك لكونه كلام الله تعالى فيثاب عليه فتركت تلاوته لذلك.

(١) البرهان للزركشي ٣٥ / ٢.

(٢) الإثنان للسيوطي ٧٧ / ٣.

وثانيهما : بقاء المنسوخ تذكيراً بالنعمة في رفع المشقة (١).

الثالث : نسخ التلاوة والحكم معاً .

ومثاله : ما رواه مسلم وغيره من أصحاب السنن عن عائشة رضي الله عنها .

قالت : « كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرم من فسخن بخمس معلومات » . فتوفى رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن» (٢).

فإن قيل : ظاهر « وهن مما يقرأ من القرآن » بقاء التلاوة، وليس كذلك فإنه غير موجود في مصحف عثمان.

والجواب : أن التلاوة نسخت ولم يبلغ ذلك كل الناس ؛ لا بعد وفاة الرسول ﷺ ، فتوفى وبعض الناس يقرؤها .

وقد أنكر بعض العلماء هذا القسم لأن الأخبار فيه أيضاً أخبار آحاد لا يحتج بها على النسخ.

وأجيب عن ذلك : بأن ثبوت النسخ شيء، وثبوت نزول القرآن شيء آخر.

ثبوت النسخ يكفي فيه الدليل الظني بخبر الآحاد ، أما ثبوت نزول القرآن فهو الذي يشترط فيه الدليل القطعي (٣).

مطلب في الحكمة من وقوع النسخ،

ذكر الشيخ مناع القطان خلاصة الحكمة في وقوع النسخ في ما يأتي :

(١) الإتقان ٦٣/٣ .

(٢) الإتقان للسيوطي ٦٢/٣ ، مباحث في علوم القرآن للقطان ص ٢٢٨ .

(٣) المصدرين السابقين .

(١) مراعاة مصالح العباد.

(٢) تطور التشريع بتطور أحوال المكلفين.

(٣) ابتلاء المكلفين واختبار مدى قدراتهم على الامتثال من عدمه.

(٤) إرادة الخير للأمة والتيسير عليها لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة

ثواب، وإن كان إلى أخف ففيه السهولة واليسر (١).

مطلب في التفريق بين بعض المصطلحات:

التبس على بعض علماء الأمة - أو غيرهم - بعض المصطلحات التي تشكك

في النسخ فأنكروا وقوعه إما جملة وتفصيلاً، أو بالإيهام بهذه المصطلحات.

ولعل أهم هذه المصطلحات التي التبت بالنسخ مصطلحان هما :

(١) البداء . (٢) التخصيص .

وستفرق بين كل مصطلح منهما وبين النسخ .

(١) البداء والنسخ :

معنى البداء : للبداء معنيان :

الأول : الظهور بعد الخفاء، ومنه قوله تعالى : ﴿وبدا لهم ما كانوا يخفون من

قبل﴾.

الثاني : نشأة رأى جديد لم يكن موجوداً من قبل، ومنه قوله تعالى في شأن

عزيز مصر مع يوسف عليه السلام ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه

حتى حين﴾.

(١) مباحث في علوم القرآن لمناح القطان ص ٢٤٠. (بتصرف).

والتداخل الذى التبس على بعض الناس هنا، أن النسخ لا يجوز لأنه يؤدي إلى البداء وهو أن يكون ثمة حكم ظهر لله تعالى بعد أن كان خافياً عليه، أو أنه أنشأ حكماً جديداً كان يجهله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والنسخ ليس كما ظن هؤلاء - وإنما هذا زعم اليهود ابتداء - إنما النسخ والمنسوخ أصلاً فى علم الله ابتداء ظاهرة لديه لم يخف عليه منيما شئ، غاية ما هناك بالنسبة للمكلفين أن الله أظهر ما علمه لعباده - وهو عليهم به - لا ظهور ذلك له ، لحكمة يعلمها وهو أن الحكم المنسوخ منوط بحكمة أو مصلحة تنتهى فى وقت معلوم، كما علم - جل شأنه - أن الناسخ يجرى فى هذا الوقت المعلوم منوطاً بحكمة ومصلحة معينة أخرى لتدرج أحوال المكلفين من الضعف إلى القوة، ومن السقم إلى الصحة .

(٢) النسخ والتخصيص :

معنى التخصيص : هو أن تقصر الحكم على بعض الأفراد دون الجميع، أو هو : قصر العام على بعض أفراد .

والتداخل هنا أن الذين توهموا أن النسخ يؤدي إلى البداء - بزعمهم - اخترعوا القول بالتخصيص بدلاً من القول بالنسخ، أى أن ما وقع فى القرآن من الآيات النسخة إنما هى مخصصة للعموم فى ما ظن أنه منسوخ.

وهذا خلط تماماً بين النسخ والتخصيص، والتخصيص أبداً لا يقوم مقام النسخ ولا يسد مسده لا اعتبارات أهمها :

أولاً : أن النسخ يجرى لإبطال حجية المنسوخ إماماً لجميع أفراد فـيكون مبطلاً للعام، أو مبطلاً لبعض أفراد حسب الحكم الذى جاء به الناسخ.

أما التخصيص فلا يبطل حجية العام (أى المنسوخ) أبداً، بل نظل حجية العام قائمة والمخصص إنما هو بعض الأفراد فقط .

ثانياً : أن النسخ لا يقع إلا بالكتاب أو السنة، والتخصيص يمكن أن يقع بالعقل والحس.

ثالثاً : أن النسخ لا يكون إلا فى الأوامر والنواهي، بينما التخصيص يكون فى الأخبار .

رابعاً : أن العام الذى يراد تخصيصه يشمل حكمه جميع الأفراد، وإخراج البعض منهم يكون على سبيل المجاز الذى لا بد له من قرينة لتخصيصه بينما النسخ على سبيل الحقيقة القاطعة .

من أجل هذا التوهم والالتباس وقع خلاف العلماء فى موضوع النسخ على أربعة آراء :

أصحاب رأى الأول : ينكرون تماماً النسخ فى الشرائع، ويعتبرون أنه « بداءة » أى ظهور مسألة عند الله كانت خافية عليه، وهو يؤدى إلى وقوع الجهالة على الله تعالى.

وهذه المسألة رغم أنها لبعض علماء المسلمين لكنها فى الأصل فكرة يهودية شاعت بين علمائهم وأجبارهم بفرض إثبات عدم إمكانية نسخ « التوراة » بعد نزولها. مع أنهم يقررون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها كتحریم كثير من الحيوان على بنى إسرائيل بعد حلّه، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ﴾ (١).

(١) ٩٣ : آل عمران .

أصحاب الرأي الثانى : يشتون النسخ على أنه وإن كان « بدءاً » فالبدء عندهم جائز على الله تعالى . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهم الروافض، وقد استدلوا على ذلك بقوله تعالى ﴿ يمحوا الله ما يشاء ويثبت ﴾ (١)، على أساس أن الآية تظهر لله المحو والإثبات، وهذا تحريف للمعنى الموجود فى الآية: إذ المعنى البين من الآية هو : ينسخ الله ما يستصوب نسخه، ويثبت بدله ما يرى فيه المصلحة فى إثباته: وهذا المعنى ثابت فى حالات كثيرة من القرآن كتدوله تعالى : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ (٢). ومحو الكفر والمعاصى بالتوبة.

أصحاب الرأي الثالث : يجيزون النسخ عقلاً، ويمنعون وقوعه شرعاً. وهذا رأى أبى مسلم الأصفهاني : محمد بن بحر المعتزلى المتوفى سنة ٣٢٢هـ، وهو أول من قال بفكرة التخصيص بدلا من النسخ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٣). ووجه استدلاله بها أنه جعلها على معنى أن أحكامه لا تبطل أبداً، مع أن المفهوم من الآية أن القرآن لم يتقدمه ما يبطله من الكتب، ولن يجرى بعده ما يبطله. أصحاب الرأي الرابع : قالوا بجواز النسخ عقلاً، ووقوعه شرعاً. أما الشرع :

أ- فقوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير ﴾ (٤).

ب - ما ورد فى الصحيح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن عمر -

(٢) ١١٤ : هود .

(٤) ١٠٦ : البقرة .

(١) ٣٩ : الرعد .

(٣) ٤٢ : فصلت .

رضى الله عنه قال : « أقرؤنا أبي، وأقضانا عليّ، وإنا لندع من قول أبي . وذلك أن أبيًا يقول : لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، وقد قال الله عز وجل ﴿ ما نسخ من آية أو نسخها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ .

وأما العقل :

فلأن أفعال الله تعالى لا تعلل بالأغراض، فله أن يأمر بالشئ في وقت، وينسخه بالنهي عنه في وقت لمصلحة تقتضيها مشيئته تعالى . وهذا رأى جمهور علماء المسلمين، وهو المعتمد به .

مبحث فى : قضية النسخ بين الإغراق والغلو

ويتبين من هذه الآراء الأربعة أن قضية النسخ أخذت هذه الأبعاد الأربعة فى الفكر الإسلامى، وبعضها دخیل عليه، وهى تتركز كلها ما بين مغالٍ فى إنكار النسخ، وما بين مفرط فيه إلى حد الإغراق حتى عدوا جميع السور ناسخة ومنسوخة ماعدا ثلاثا وأربعين سورة فقط ليس فيها ناسخ ولا منسوخ (١).

والتحقيق هو وقوع النسخ فى بعض الآيات فقط، فالنسخ موجود ولكنه مختص فى آيات معينة ننقلها عن السيوطى بإجمالها وهى :

(١) من سورة البقرة :

١ - ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ﴾ (٢) منسوخة : قيل بآية الميراث، وقيل بحديث (لا وصية لوارث) (٣)، وقيل : بالإجماع .

(١) البرهان للزركشى ٢/ ٣٣-٣٤.

(٢) البقرة: ١٨٠ .

(٣) النساء: ١١ .

٢- ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية﴾ (١)، قيل : منسوخة بقوله : ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ (٢)، وقيل : محكمة ، و(لا) مقدرة : أى (لا يطيقونه).

٣- ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ (٣) منسوخة بقوله تعالى : ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ (٤) لأن مقتضاها الموافقة فيما كانوا عليه من تحريم الأكل والوطء بعد النوم. وقيل نسخ لما كان بالسنة.

٤- ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ (٥) منسوخة بقوله : ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ (٦) أخرجه ابن جرير عن عطاء.

٥- ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول﴾ (٧) منسوخة بقوله : ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً تربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ (٨) والوصية فى الآية منسوخة بآية الميراث (٩).

٦- ﴿إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ (١٠) منسوخة بقوله : ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ (١١).

(٢) من سورة آل عمران :

٧- ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ (١٢) قيل منسوخ بقوله : ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ (١٣)، وقيل : محكمة .

(١) البقرة: ١٨٤. (٢) البقرة: ١٨٥. (٣) البقرة: ١٨٣. (٤) البقرة: ١٨٧. (٥) البقرة: ٢١٧.
(٦) التوبة: ٣٦، (٧) البقرة: ٢٤٠. (٨) البقرة: ٢٣٤. (٩) النساء: ١١. (١٠) البقرة: ٢٨٤.
(١١) البقرة: ٢٨٦. (١٢) آل عمران: ١٠٢. (١٣) التغابن: ٦.

قال السيوطي : وليس فيها آية يصح فيها دعوى النسخ غير هذه (أى فى آل عمران)

(٣) ومن النساء :

٨- ﴿ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصابهم ﴾ (١) منسوخة بقوله : وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ (٢).

٩- ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه ﴾ (٣)، قيل : منسوخة ، وقيل : محكمة ولكن الناس تهاونوا فى العمل بها.

١٠- ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة ﴾ (٤). منسوخة بقوله : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد ﴾ (٥).

(٤) ومن المائدة :

١١- ﴿ ولا الشهر الحرام ﴾ (٦) منسوخة بإباحة القتال فيه.

١٢- ﴿ فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ﴾ (٧)، منسوخة بقوله : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ﴾ (٨).

١٣- ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهداء بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم ﴾ (٩)، منسوخة بقوله : ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾ (١٠).

(١) النساء: ٣٣ .	(٢) الأنفال: ٧٥ .	(٣) النساء: ٨ .	(٤) النساء: ١٥ .
(٥) النور: ٢ .	(٦) المائدة: ٢ .	(٧) المائدة: ٤٢ .	(٨) المائدة: ٤٩ .
(٩) المائدة: ١٠٦ .	(١٠) الطلاق: ١١ .		

(٥) ومن الأنفال :

١٤ - ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ ﴾ (١). منسوخة بقوله : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴾ (٢).

(٦) ومن التوبة :

١٥ - ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ (٣)، منسوخة بآيات العذر، وهي :-

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ ﴾ (٤).

﴿ وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ﴾ (٥).

﴿ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾ (٦).

(٧) ومن النور :

١٦ - ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً ﴾ (٧)، منسوخة بقوله : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى

مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ ﴾ (٨).

١٧ - ﴿ لَيْسَتْ أَذْنُكُمْ لِلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (٩). قيل : منسوخة : وقيل محكمة

ولكن الناس تهاونوا في العمل بها .

(٨) ومن الأحزاب :

١٨ - ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ ﴾ (١٠)، منسوخة بقوله : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ

أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ﴾ (١١).

(١) الأنفال : ٩٥ .	(٢) الأنفال : ٦٦ .	(٣) التوبة : ٤١ .	(٤) النور : ٦١ .
(٥) التوبة : ٩١ .	(٦) التوبة : ١٢٢ .	(٧) النور : ٣ .	(٨) النور : ٣٢ .
(٩) النور : ٥٨ .	(١٠) الأحزاب : ٥٧ .	(١١) الأحزاب : ٥٠ .	

(٩) ومن للجادلة :

١٩- ﴿ إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر ﴾ (١)، منسوخة بما بعدها ﴿ وأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ (٢).

(١٠) ومن الممتحنة :

٢٠- ﴿ فأتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ (٣)، قيل : منسوخة بآية السيف، وقيل : بآية الغنime، وقيل : محكمة.

(١١) ومن المزمل :

٢١- ﴿ قم الليل إلا قليلاً ﴾ (٤)، قيل : منسوخ بآخر السورة، ثم نُسخ الآخر بالصلوات الخمس .

قال السيوطي :

« فهذه إحدى وعشرون آية منسوخة - على خلاف في بعضها - لا يصح دعوى النسخ في غيرها ».

والأصح في آية : الاستئذان، والقسمة : الإحكام، فصارت تسعة عشر، ويضم إليها قوله تعالى : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ (٦)، منسوخة بقوله : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ (٧). على رأى ابن عباس رضى الله عنهما فتمت عشرون .

(١) الجادلة: ١١ . (٢) الجادلة: ١٣ . (٣) الممتحنة: ١١ . (٤) المزمل: ٢ .
(٥) البقرة: ١٥ . (٦) البقرة: ١٤٩ .

وقد نظمناها فى أبيات فقلت :

- | | | |
|---------------------------------|---|--------------------------------|
| قد أكثر الناس فى المنسوخ من عدد | ∴ | وأدخلوا فيه آيا ليس تنحصر |
| وهاك تحريير آي لا مزيد لها | ∴ | عشرين حررها الخذاق والكبير |
| آي التوجه حيث المرء كان وأن | ∴ | يوصى لأهليه عند الموت محتضر |
| وحرمت الأكل بعد النوم من رفث | ∴ | وفدية لمطيق "صوم مشنهر" |
| وحق تقسواه فيما صح من أثر | ∴ | وفى الحرام قتال للألى كغفروا |
| والاعتداد بحول مع وصيتها | ∴ | وأن يدان حديث النفس والشكر |
| والحلف والحبس للزاني وترك أولى | ∴ | كفروا شهادتهم والصبر والنشر |
| ومنع عقد لزان أو لزانيسة | ∴ | وما على المصطفى فى العقد محتظر |
| ودفع مهر لمن جاءت وآية لمجد | ∴ | سواه كذاك قيام الليل مستطر |
| وزيد آية الاستئذان من ملكت | ∴ | وآية القسمة الفضلى لمن حضروا |

مبحث فى : النسخ إلى بدل وإلى غير بدل

وقد نظر العلماء فى هذه الآيات العشرين فوجدوها لا تخرج عن أن يكون النسخ فيما على وجهين : (٢) أو نسخ بغير بدل .

وهو ثلاثة أنواع :

- أ- نسخ ببدل مماثل ومثاله : نسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة .
- ب- نسخ ببدل إلى أخف من المنسوخ، ومثاله : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ وقد كان محرما عليهم ذلك إذا صلوا العشاء،

وناموا إلى اليوم التالي .

جـ- نسخ يبدل أثقل من المنسوخ، ومثاله : نسخ الحبس في البيوت بالجلد ثمانين جلدة، أو الرجم حتى الموت في حال الإحصان.

(٢) وأما النسخ بغير بدل : فمثاله : نسخ الصدقة بين يدي نجوى رسول الله ﷺ . وأنكر ذلك بعض المعتزلة، والظاهرية .

كما نظر إلى هذه الآيات أيضا بتقسيم آخر فقالوا :

* فرض نسخ فرضا، ولا يجوز العمل بالأول، ومثاله : نسخ الحبس للزواني بالحد.

* فرض نسخ فرضا، ويجوز العمل بالأول، ومثاله : آية المصابرة.

* فرض نسخ ندبا، ثم صار فرضا: ومثاله : القتال كان ندبا ثم صار فرضا،

* ندب نسخ فرضا، كقيام الليل، نسخ بالقراءة (فاقراءوا ما تيسر منه)^(١).

(١) الإتيان للسيوطي ٦٢/٣.

الباب السابع

علم معرفة القراءات والقراء

الباب السابع

فى معرفة علم القراءات والقراء (١)

وهو : العلم الذى يعرف به أوجه القراءات المختلفة لبعض مفردات النصّ القرآنى على حسب ما روى من الأحاديث والآثار .
فهو أيضا من علوم التلقى والرواية ، وليس من العلوم المبنية على النظر والاجتهاد .
فائدته :

الوقوف على أوجه القراءات المختلفة للقرآن لتكون دليلاً على حسب المدلول عليه، أو مرجحاً ، كما نقل الزركشى فى البرهان عن الكواشى .
مبحث فى : أنواع القراءات

- ١ - متواترة : وهى القراءات السبع .
 - ٢ - آحاد : وهى القراءات الثلاث المتممة للعشر ، وقيل : العشر متواترة .
 - ٣ - شاذة : وهى ما بقى من القراءة .
- ومن العلماء من استخلص من هذه الأنواع أنواعاً أخرى فجعل القراءات ستة هى :

- ١ - المتواتر : وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى متناه - وهذا هو الغالب فى القراءات .
- ٢ - المشهور : وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة المتواتر ، ووافق العربية والرسم ، واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ، ولا من الشذوذ - وذكر العلماء فى هذا النوع أنه يُقرأ به .

(١) البرهان للزركشى ٣٣٩/١ - ٣٤٢ ، الإنشائ للسيوطى ٢١٠/١ - ٢٢٩ ، مباحث فى علوم القرآن

٣ - الآحاد : وهو ما صح سنده ، وخالف الرسم ، أو العربية ، أو لم يشتهر
 الاشتهار المذكور. وهذا لا يُقرأ به ، ومن أمثلته ما روى عن أبي بكرة : « أن النبي
 ص قرأ : « منكئين على رفارف خضر وعباقرى حسان » (١).
 وما روى عن ابن عباس أنه قرأ : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » (٢).
 - بفتح الفاء .

٤ - الشاذ : وهو ما لم يصح سنده . كقراءة « ملك يوم الدين » (٣) بصيغة
 الماضي . ونصب « يوم » .

٥ - الموضوع : وهو ما لا أصل له .

٦ - المدرج : وهو ما زيد في الشرائع على وجه التفسير - كقراءة ابن
 عباس : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ »
 فقوله : « في مواسم الحج » تفسير مدرج في الآية (٤).
 الشُّرَاءُ المعتمدون في أخذ القراءة عنهم هم :

١ - أبو عمرو بن العلاء شيخ الرواة : وهو زيان بن العلاء بن عمار المازني
 البصري ، وقيل اسمه يحيى ، وقيل اسمه كنيته ، وتوفي بالكوفة سنة أربع وخمسين
 ومائة (١٥٤ هـ) .

ورواياه : الدوري ، والسوسي ، فأما الدوري : فهو أبو عمر حفص بن عمر بن
 عبد العزيز الدوري النحوي ، والدور : موضع ببغداد ، توفي سنة ست وأربعين
 ومائتين وأما السوسي : فهو أبو شعيب صالح بن زياد بن عبد الله السوسي ، توفي
 سنة إحدى وستين ومائتين (٢٦١ هـ) .

(١) أخرجه الحاكم (والآية من سورة الرحمن : ٧٦) بلفظ : « مِنْكَيْنِ عَلَى رَفَرَفٍ خَضِرٍ وَعَبَاقِرَى حِسَانٍ » .

(٢) أخرجه الحاكم (والآية من سورة التوبة : ١٢٨) .

(٣) الفاتحة : ٤ .

(٤) أخرجه البخاري (والآية من سورة البقرة : ١٩٨) بدون عبارة : « في مواسم الحج » .

٢ - ابن كثير : هو عبد الله بن كثير المكي ، وهو من التابعين ، وتوفي بمكة سنة عشرين ومائة (١٢٠ هـ)

ورواياه : البزى ، وقنبل ، أما البزى : فهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المؤذن المكي ، يكنى أبا الحسن ، وتوفي بمكة سنة خمسين ومائتين (٢٥٠ هـ) .
وأما قنبل : فهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن خالد بن سعيد المكي المخزومي ، يكنى أبا عمرو ، ويلقب قنبلاً ، ويقال : هم أهل البيت بمكة ، يعرفون بالقنابلة ، وتوفي بمكة سنة إحدى وتسعين ومائتين (٢٩١ هـ) .

٣ - نافع المدني : هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي ، أصله من أصفهان ، وتوفي بالمدينة سنة تسع وستين ومائة (١٦٩ هـ) .

ورواياه : قالون ، وورش ، أما قالون : فهو عيسى بن منيا « بالمد والقصر » المدني معلم العربية ، يكنى أبا موسى ، وقالون لقب له أيضاً ، يروي أن نافعاً لقبه به لجودة قراءته ، لأن « قالون » بلسان الروم « جيد » . وتوفي بالمدينة سنة عشرين ومائتين (٢٢٠ هـ) .

وأما وورش : فهو عثمان بن سعيد المصري ، يكنى أبا سعيد ، وورش لقب له ، لقب به فيما يقال لشدة بياضه ، وتوفي بمصر سنة سبع وتسعين ومائة (١٩٧ هـ) .

٤ - ابن عامر الشامي : هو عبد الله بن عامر اليحصبي قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك ، يكنى أبا عمران ، وهو من التابعين ، وتوفي بدمشق سنة ثمان عشرة ومائة (١١٨ هـ) .

ورواياه : هشام ، وابن ذكوان ، فأما هشام : فهو هشام بن عمار بن نصير القاضي الدمشقي ، يكنى أبا الوليد ، وتوفي بها سنة خمس وأربعين ومائتين (٢٤٥ هـ) .

وأما ابن ذكوان : فهو عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان الترشبي الدمشقي ، يكنى أبا عمرو ، ولد سنة ثلاث وسبعين ومائة (١٧٣ هـ) وتوفي بدمشق سنة اثنتين وأربعين ومائتين (٢٤٠ هـ) .

٥ - عاصم الكوفى : هو عاصم بن أبى النجود، ويقال له ابن بهدلة، أبو بكر، وهو من التابعين ، وتوفى بالكوفة سنة ثمان وعشرين ومائة (١٢٨ هـ) .

ورواياه : شعبة، وحفص ، فأما شعبة : فهو أبو بكر شعبة بن عباس بن سالم الكوفى . وتوفى بالكوفة سنة ثلاث وتسعين ومائة (١٩٣ هـ) .

وأما حفص : فهو حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز الكوفى، ويكنى أبا عمرو، وكان ثقة ، قال ابن معين : هو أقرأ من أبى بكر، وتوفى سنة ثمانين ومائة (١٨٠ هـ) .

٦ - حمزة الكوفى : هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الفرضى التيمى، ويكنى أبا عمارة وتوفى بحلولان فى خلافة أبى جعفر المنصور سنة ست وخمسين ومائة (١٥٦ هـ) .

ورواياه : خلف ، وخلاد، فأما خلف : فهو خلف بن هشام البزاز، ويكنى أبا محمد توفى ببغداد سنة تسع وعشرين ومائتين (٢٢٩ هـ) .

وأما خلاد ، فهو خلاد بن خالد ، ويقال ابن خلود ، الصيرفى الكوفى ، ويكنى أبا عيسى ، وتوفى بها سنة عشرين ومائتين (٢٢٠ هـ) .

٧ - الكسائى الكوفى : هو على بن حمزة إمام النحاة الكوفيين ، ويكنى أبا الحسن ، وقيل له « الكسائى » من أجل أنه أحرم فى كساء - توفى بـ « رنبوبة » قرية من قرى الرى حين توجه إلى خراسان مع الرشيد سنة تسع وثمانين ومائة (١٨٩ هـ) .

ورواياه : أبو الحارث ، وحفص الدورى : فأما أبو الحارث فهو الليث بن خالد البغدادى، توفى سنة أربعين ومائتين (٢٤٠ هـ) .

وأما حفص الدورى : فهو الراوى عن أبى عمرو ، وقد سبق ذكره .

أما الثلاثة تكملة العشرة فهم :

٨ - أبو جعفر المدني : هو يزيد بن القمقماق ، وتوفى بالمدينة سنة ثمان وعشرين ومائة (١٢٨ هـ) - وقيل (١٣٢ هـ) .

ورواياه : ابن وردان ، وابن جمار : فأما ابن وردان : فهو أبو الحارث عيسى ابن وردان المدني ، وتوفى بالمدينة في حدود الستين ومائة (١٦٠ هـ) .
وأما ابن جمار : فهو أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جمار المدني ، توفى بها بعد السبعين ومائة (١٧٠ هـ) .

٩ - يعقوب البصري : هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي ، وتوفى بالبصرة سنة خمس ومائتين (٢٠٥ هـ) - وقيل (١٨٥ هـ) .
ورواياه : رويس . وروح ، فأما رويس : فهو أبو عبد الله محمد بن المتوكل اللؤلؤي البصري ، ورويس لقب له ، وتوفى بالبصرة سنة ثمان وثلاثين ومائتين (٢٣٨ هـ) .

وأما روح : فهو أبو الحسن روح بن عبد المؤمن البصري النحوي ، وتوفى سنة أربع أو خمس وثلاثين ومائتين (٢٣٤ هـ) - أو (٢٣٥ هـ) .
١٠ - خلف : هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البزار البغدادي ، وتوفى سنة تسع وعشرين ومائتين (٢٢٩ هـ) - وقيل : لم يوقف على تاريخ وفاته .

ورواياه : إسحاق ، وإدريس ، أما إسحاق : فهو أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن عثمان الوراق المروزي ثم البغدادي ، توفى سنة ست وثمانين ومائتين (٢٨٦ هـ) .

وأما إدريس : فهو أبو الحسن إدريس بن عبد الكريم البغدادي الخزاز ، توفى يوم الأضحى سنة اثنتين وتسعين ومائتين (٢٩٢ هـ) .
يزيد بعضهم أربع قراءات على هاتيك العشر ، وهن :

١ - قراءة الحسن البصري . نولى الأنصار ، أحد كبار التابعين المشهورين
بالتزهد . توفي سنة (١١٠) هجرية .

٢ - وقراءة محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن محيصن ، توفي سنة ١٢٣
هجرية ، وكان شيخاً لأبي عمرو .

٣ - وقراءة يحيى بن المبارك اليزيدي النحوي ، من بغداد ، أخذ عن أبي
عمرو وحيدة ، وكان شيخاً للذوري والسوسي ، توفي سنة ٢٠٢ هجرية .

٤ - وقراءة أبي الفرج محمد بن أحمد الشيبودي ، توفي سنة ٣٨٨ هجرية .

مطلب في حكم هذه القراءات وضوابطها :

يعرف إجمالاً أن القراءات أربع عشر قراءة ، سبع متواترة ، وثلاث أحادية ،
وأربعة شاذة .

وهذا التقسيم هو ما عليه جمهور علماء الأئمة .

وماعدا المتواتر لا تجوز القراءة به في الصلاة ، ولا في غيرها لأنها - والحالة
هذه - ليست قرآناً . لأن القرآن لا يثب إلا بالتواتر ، والقراءة الشاذة ليست متواترة ،
كما نص عليه الإمام النووي في (شرح المذهب) ونقله غير واحد من العلماء
عنه .

مبحث في : أهم ضوابط القراءة الصحيحة

نتلخص أهم ضوابط القراءة الصحيحة فيما يأتي :

١ - موافقة القراءة للعربية بوجه من الوجوه : سواء أكان أفصح أم فصيحاً ، لأن
القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها بالإسناد لا بالرأي .

٢ - وأن توافق القراءة أحد المتصاحف العثمانية ولو احتمالاً : لأن الصحابة في
كتابة المتصاحف العثمانية اجتهدوا في الرسم على حسب ما عرفوا من لغات
القراءة ، فكتبوا (انصراخاً) مثلاً في قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ

المُسْتَقِيمَ». «بالصاد» المبدلة بالسين - وعدلوا عن «السين» التي هي الأصل، لتكون قراءة (السين) «السرائ» وإن خالفت الرسم من وجه، فقد أتت على الأصل اللغوي المعروف، فيعتدلان، وتكون قراءة الإشمام محتملة لذلك.

والمراد بالموافقة الاحتمالية ما يكون من نحو هذا، كقراءة: ﴿مَالِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ فإن لفظة «مالك» كتبت في جميع المصاحف بحذف الألف فتُقرأ «مَلِكٌ» وهي توافق الرسم تحقيقاً، وتُقرأ «مَالِكٌ» وهي توافقه احتمالاً، وهكذا. في غير ذلك من الأمثلة.

ومثال ما يوافق اختلاف القراءات الرسم تحقيقاً: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالتاء والياء و﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالياء والنون، ونحو ذلك، مما يدل تجرده عن النقط والشكل في حذفه وإثباته على فضل عظيم للمصحابة رضى الله عنهم في علم الهجاء خاصة، وفهم ثاقب في تحقيق كل علم.

ولا يشترط في القراءة الصحيحة أن تكون موافقة لجميع المصاحف، ويكفي الموافقة لما ثبت في بعضها، وذلك كقراءة ابن عامر: ﴿وَبِالْزُبُرِ وَيَالِ كِتَابٍ﴾^(١) بإثبات الباء فيهما، فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي.

٣ - وأن تكون القراءة مع ذلك صحيحة الإسناد: لأن القراءة سنة متبعة يمتد فيها على سلامة النقل وصحة الرواية، وكثيراً ما ينكر أهل العربية قراءة من القراءات لخروجها عن القياس، أو لضعفها في اللغة، ولا يحل أنمة القراء بإنكارهم شيئاً.

تلك هي ضوابط القراءة الصحيحة، فإن اجتمعت الأركان الثلاثة:

١ - موافقة العربية.

٢ - ورسم المصحف

(١) آل عمران: ١٨٤، بدون الباء في الكلمتين.

٣ - وصحة السند . ففي القراءة الصحيحة ، ومتى اختل ركن منها أو أكثر أطلق عليها أنها ضعيفة : أو شاذة ، أو باطلة .

مطلب في : أهم الكتب المؤلفة في علم القراءات :

- ١ - كتاب الحجة لأبي علي الفارسي .
- ٢ - كتاب الكشف عن وجوه القراءات وعللها لمكي .
- ٣ - كتاب الهداية لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت ٣٠٠ هـ) .
- ٤ - كتاب النشر في القراءات العشر لأبن الجزري .

فوائد :

(١) ينبغي على كل مسلم ومسلمة أن يكثر من قراءة القرآن فهو كلام الله رب العالمين ، الخالق ، العليم بالنفس ، الرحيم بها عند الزلل والمحق ، الآخذ بالنواحي إلى طريق الصواب ، والمُنَجِّي لها من المهلكات .
ففي قراءته شفاء للنفس ، وطمأنينة للقلوب ، وشرح للصدر ، والعصمة من المعاصي .

وهو فرض الصلاة ، ومستحبات الذكر .

(٢) يحسن قراءة القرآن الكريم بالطريقة الصحيحة ، والآداب السليمة التي أورثنا إياها رسول هذه الأمة ص ، وعلمنا إياها الصالحون الأوائل من مشاهير الحفاظ والقراء .

وأهم هذه الآداب ما يلي :

- ١ - أن يكون على طهارة ، في نفسه ، وثوبه ، ومكانه .
- ٢ - أن يقرأ في سكينة وخشوع ، وينهي لله تعالى في قلبه وجوارحه لأنه يسمعه .

٣ - أن يتعوذ في ابتداء القراءة .

- ٤ - أن يقرأ مرتلاً ، ويجوّد كل حرف بحسب مخارجه اللغوية .
- ٥ - أن يتنمّن ويتدبر ما يقرأ ، ويتأثر بمعاني القرآن إن كان وعيداً فيظهر حبه الخوف والحزن ، وإن كان وعداً فيظهر عليه الشرح والسرور .
وإن مرّ بآية فيها سجدة سجد لها ، وإن مرّ بقصة نبى العبرة منها .
- ٦ - الأفضل أن يجهر بالقراءة ، وأن يقرأ في المصحف .

(٣) لا بأس بتعليم وتحفيظ القرآن الكريم ، وأخذ الأجرة عليه .
وإن كان الأفضل تعليم القرآن وتحفيظه حسنة لله تعالى لمن أغناه الله تعالى عن الأجرة .

الخاتمة والنتائج

الخاتمة والنتائج

جاء هذا المدخل لبيان جذور الحضارة الإسلامية المعتمدة على الوحي الإلهي سواء كان قرآنا أو سنة .

وألقى ضوءاً كافياً على أهمية هذه الجذور التي تحاول بعض الأقلام المجنّدة من قبل جهات كثيرة، لا تريد لهذه الحضارة أن تستمر في أداء رسالتها الخالدة، لأنها في نظر هذه الجهات خطر عليها، وعلى مسيرة حضارتها هي .

والمأجور ، والمؤجّر كلاهما في فهم خاطئ، فحضارة الإسلام لم تأت لتهدم حضارات الأمم الأخرى، بل لتعاونها ، وتشد من أزرها إن حاولت أن تستفيد منها، أو تستقل بنفسها وبشئون أبنائها، إن وجدت صيداً لمثل هذا النوع من التعاون.

فهى على كل حال حضارة شامخة بعلومها، وفنونها، وآدابها، وتهذيبها يُحتاج إليها، ولا تحتاج إلى غيرها.

فجاء هذا المدخل ليقول في تواضع إلى كل من لا يفهم - أو لا يحاول أن يفهم - أن جذور الحضارة الإسلامية راسخة وقوية وعميقة، ولا يهدم شيئاً منها صرخة ناعق لأنها وبكل بساطة تعاليم سماوية محفوظة بالذكر وعلوم الذكر وقد قيّض الله لها من يقوم على خدمتها، وتنميتها، والحفاظ عليها.

وقد كنت أرغب في أن أترك الكتابة في نتائج هذا المدخل إلى فطنة القارئ لولا أن العمل العلمى يحتم على التذكير به، حتى وإن كانت قائمة بين يديه يراها رأى العين.

وأهم ما خرجت به دراسة هذا المدخل من النتائج مايلي :

(١) شدّ انتباه القارئ إلى حقيقة حاضرة في الواقع، ولكنها غائبة عن الذهن وهي أن «الدين» غريزة في النفس البشرية تحتاج إلى الإعتناء بها، وإشباعها بالطرق المشروعة من خلال تعاليم «كل أمة» لها «دين».

وبغير هذا الطريق يكون الانحراف .. ثم التشدد .. ثم الصراع.

(٢) أن الحضارة الإسلامية هي «الوحي الإلهي» قرآنا وسنة معاً، والسنة هي بيان القرآن وتفسيره، ومن علومهما وفنونهما قامت حضارة الأمة الإسلامية.

فنحن نقيم العلاقات الاجتماعية من زواج، ونسب، وميراث، وطلاق، وعلاقات أسرية، وتراحم، وتواد طبقاً لتعاليم هذا الوحي .

ونقيم العلاقات الاقتصادية من تعاملات في البيوع، والشركات، والإجارات، والمزارعات طبقاً لمفاهيم علوم هذه الحضارة.

وقس على ذلك سائر العلاقات.

والبحث عن طرق أخرى غير طرق هذه الحضارات يوجب التنازع والتصادم ، ويحدث المفاصد الكبرى في الأمة .

ولا تستطيع أمة تدين بتعاليم دين معين، أن تطبق تعاليم دين آخر لا يدين به أفراد أمتها أياً كان طبيعة هذا الدين الآخر، أو جبروته .

(٣) علم تفسير القرآن الكريم : علم على غاية من الأهمية، وترجع أهميته إلى بيان المراد عن الله عز وجل سواء أكان ذلك في الفكر العقائدي، أم في الأحكام والتشريعات، أم في الأخلاق العامة، والتراحم والترابط بين الأسرة

الواحدة، وبين الأسر بعضها ببعض، وبين المجتمع ككل، وبين الأمة جميعها في توادها وتعاطفها، وبينها وبين سائر الأمم الإنسانية في تعاونها، وتعایشها، وعلاقاتها الأمتية .

ولمخطر هذا العلم قام على خدمته مجموعة من العلوم بلغ مجموعها زهاء ثمانين علما أو يزيد، قبض الله لها من يرعاها، ويكشف عن فوائدها لخدمة كتاب الله العزيز، والمخاطبين به . وصدق الله - عز وجل - إذ يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

د/ عبد الجواد خليف

فهرس المصادر

- * الإلتقان فى علوم القرآن : للسوطى ، ط. مصطفى الحلبي ١٩٥١ م .
- * الأحاديث التساعية : لشيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة المتوفى ٧٣٣ هـ ، ط. دار البيان - القاهرة .
- * أسباب النزول : للواحدي أبو الحسن على بن أحمد النيسابورى - المتوفى ٤٦٨ هـ ، ط. دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ .
- * أسد الغابة فى معرفة الصحابة : لعز الدين بن الأثير أبى الحسن على بن محمد الجزرى ، طبع مطبعة الشعب - القاهرة .
- * أنوار البيان فى علوم القرآن : لزكى محمد أبو سريع - الطبعة الأولى - ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ - طبع دار الطباعة المحمدية .
- * البرهان فى علوم القرآن : للزركشى محمد بن عبد الله المتوفى ٧٩٤ هـ .
- * تاج العروس : للسيد محمد مرتضى ، ط. دار الجبل - الكويت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م
- * تاريخ بغداد : للخطيب البغدادى ، طبع دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن الهند ١٣٨٤ هـ .
- * تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى ٩١١ هـ ، طبع دار الكتب الحديثة - القاهرة .
- * التفسير والمفسرون : لمحمد حسين الذهبى ، ط. دار الكتب الحديثة - القاهرة .
- * تهذيب التهذيب : لأحمد بن حجر العسقلانى ، ط. أولى - الهند .
- * تهذيب اللغة : لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى ، طبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف - القاهرة .

- * جامع البيان عن تأويل آي القرآن : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - الطبعة الثالثة - طبع مطبعة ومكتبة البابي الحلبي - القاهرة .
- * دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث : (امتياز أحمد) الطبعة الأولى - ط. دار الوفاء - المنصورة .
- * الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب : لابن فرحون :
- * سنن الترمذي : لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ، توفي ٢٥٥ هـ ط. دار الكتب العلمية . بيروت .
- * السيرة النبوية : لأبي محمد عبد الملك بن هشام - ط. دار الهداية .
- * شرح السنة : للحسين بن مسعود البغوي - المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٣ م .
- * صحيح البخاري بشرح السندی : للإمام محمد بن إسماعيل البخاري - ط. عيسى الحلبي .
- * صحيح البخاري بشرح فتح الباري : للحافظ أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد - ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- * صحيح مسلم : بشرح النووي للإمام مسلم بن الحجاج القشيري - ط. دار الفكر .
- * طبقات الشافعية الكبرى للإمام السيوطي ، ط. أولى . عيسى الحلبي .
- * طبقات المفسرين : لجلال الدين السيوطي . طبعة ليدن ١٨٣٩ م .
- * علوم الحديث : لابن الصلاح أبو عمر بن الصلاح - طبع الهند ١٣٥٧ هـ .
- * الثاموس المحيط : لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي - الطبعة الثانية (١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م) طبع - مطبعة الحلبي - القاهرة .
- * فتاوى ابن تيمية : لأحمد بن تيمية الحراني - مكتبة كردستان العلمية ١٣٢٩ هـ .

- ✽ لسان الميزان : لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - الطبعة الأولى - طبع . دائرة المعارف النظامية حيدر آباد الدكن الهند ١٣٢٩ هـ .
- ✽ مباحث في علوم القرآن : لمناع القطان .
- ✽ مبادئ التفسير : لمحمد الخضرى الدمياطى - طبع مطبعة النيل ١٣٢١ هـ .
- ✽ مجمع البيان في تفسير القرآن : للشيخ أبو الفضل بن حسين الطبرسى . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت .
- ✽ المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن الكريم : لجولد زيهير . تعريب على حسن عبد القادر وآخرين .
- ✽ المستدرک على الصحيحين : لأبى عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ النيسابورى - ط . دار الكتاب العربى بيروت .
- ✽ مسند الإمام أحمد : طبع المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣ هـ .
- ✽ مقدمة في أصول التفسير : لابن تيميه - طبع مطبعة الترقى - بدمشق .
- ✽ معرفة علوم الحديث : للحاكم النيسابورى - دار الكتب المصرية ١٩٣٧ هـ .
- ✽ مناهل العرفان في علوم القرآن : للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى - طبع عيسى البابى الحلبي - القاهرة .
- ✽ مورد الظمان إلى علوم القرآن - طبع الهند .
- ✽ هدى السارى مقدمة فتح البارى : لابن حجر العسقلاني - طبع إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٧ هـ .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
٩	القسم الأول : جذور الحضارة الإسلامية
٩	المبحث الأول : تمهيد
٢٢	نتيجة هذا المبحث
٢٣	المبحث الثاني : الوحي الإلهي
٢٣	مطلب في : الله ... والفطرة... والأنبياء... والوحي
٢٧	نتيجة هذا المبحث
٢٧	مطلب في : التعريف بالوحي
٢٩	مطلب في : صور الوحي
٣٤	مطلب في : أنواع الوحي وخصائصه
٣٦	مطلب في : كتابة الوحي ، وتدوينه ، وأشهر كُتّابه
٣٩	نتيجة هذا المبحث
٣٩	المبحث الثالث : السنة النبوية المشرفة (الوحي الخفي)
٤٥	نتيجة هذا المبحث
٤٦	المبحث الرابع : القرآن الكريم (الوحي الجلي)
٤٦	مطلب في : التعريف بالقرآن الكريم
٥٠	مطلب في : بعض أسماء القرآن ، وأوصافه
٥٥	القسم الثاني : علوم القرآن الكريم
٥٥	تمهيد
٥٦	فائدة علوم القرآن ، وأهميتها
٥٧	تطور علوم القرآن

الباب الأول

٦٧	علم التفسير
٦٧	تمهيد : منزلة علم التفسير، والحاجة إليه
٧٠	مبحث فى : نشأة التفسير ومراحله
٧٢	مطلب فى : أقسام التفسير وأنواعه
٧٣	مطلب فى : شروط المفسر وآدابه
٧٣	أولاً : شروط المفسر
٧٤	ثانياً : آداب المفسر
٧٥	مبحث فى : الأربعة المكثرون فى التفسير من الصحابة
٧٥	(١) عبد الله بن عباس
	التعريف به - علم ابن عباس - تقرّظ عمر له - منزلة ابن عباس فى التفسير -
	أسباب نبوغ ابن عباس - أدوات التفسير عند ابن عباس ومصادره - طرق
	الرواية عن ابن عباس - المطاعن .
٨٦	(٢) عبد الله بن مسعود
	التعريف به - منزلة ابن مسعود فى التفسير - مرويات ابن مسعود ومبلغها من
	الصحة .
٩٢	(٣) على بن أبى طالب
	مكانته فى العلم بصفة عامة - مكانته فى التفسير بصفة خاصة - مرويات على
	كرم الله وجهه ومدى صحتها - أهم الطرق .
٩٤	(٤) أبى بن كعب
	تعريفه - مكانته فى العلم بصفة عامة - مكانته فى التفسير خاصة - أشهر طرق
	الرواية عنه .

٩٦	مطلب في : قيمة التفسير المأثور عن الصحابة
٩٩	مطلب في : خصائص تفسير الصحابة ومميزاته
١٠٠	مبحث في : التفسير في عصر التابعين ومدارسه
١٠١	مطلب تمهيدى في : مدارس التفسير في عصر التابعين :
١٠١	١ - المدرسة المكية في التفسير وأشهر تلاميذها
١٠٢	٢ - المدرسة المدنية في التفسير وأشهر تلاميذها
١٠٣	٣ - المدرسة العراقية وأشهر تلاميذها
١٠٥	مطلب في : قيمة التفسير المأثور عن التابعين
١٠٧	مطلب في : خصائص ومميزات التفسير في عصر التابعين
١١٠	مبحث في : التفسير بالمأثور
	مراحل التفسير بالمأثور - المرحلة الأولى - المرحلة الثانية - دور التبعية
	لعلم الحديث - دور الاستقلال عن علم الحديث - دور اختصار
	الإسناد أو حذفه نهائياً .
١١٧	نموذج من : مناهج المفسرين بالمأثور (ابن جرير الطبري وتفسيره «جامع البيان») ...
	حياته - وتلقبه العلم - شيوخه - منزلة الطبري في العلم - درجته في
	الرواية - أوصافه - تلاميذه .
١٢١	مطلب في : منهج ابن جرير في تفسيره
١٢٦	مبحث في : التفسير في بداية عصر التدوين
١٢٧	مطلب في : التدوين
١٣١	مبحث في : التفسير بالرأى
	التفسير بالرأى الجائز - التفسير بالرأى الممنوع (المذموم) - أدلة المانع
	للتفسير بالرأى - رد المجوزين للتفسير بالرأى .

١٣٩	نموذج من : مناهج المنسرين بالرأى المحمود (فخر الدين الرازى وكتابه «مفاتيح الغيب»)
	التعريف به - تلقيه العلم - مؤلفاته - منهج الفخر الرازى فى تفسيره : «المناسبات» - الاهتمام بالعلوم الرياضية والكلامية - اهتمامه بالرد على المعتزلة والفرق الكلامية - إبرازه ووقوفه عند آيات الأحكام - ترتيب المسائل - ذكر اللغة والقراءات وأسباب النزول .
١٤٢	نموذج فى : التفسير بالرأى المذموم : (الزمخشري وكتابه «الكشاف»)
	توطئة - الزمخشري وكتابه - قيمة الكشاف العلمية
١٤٦	مبحث فى : التفسير النتهى «الجامع لأحكام القرآن للقرطبي»
	توطئة - لمحة تاريخية سريعة .
١٤٨	القرطبي وكتابه : الجامع لأحكام القرآن الكريم
	التعريف به - مصنفاته - شيوخه - منهج القرطبي فى تفسيره .
	الباب الثانى
١٥٣	علم نزول القرآن الكريم
١٥٣	مبحث فى : وقت نزول القرآن الكريم، ومدته، وكيفيته، وحكمة تنجيده
١٥٥	مبحث فى : كيفية إنزال القرآن الكريم
١٥٦	مبحث فى : حكمة تنجيم القرآن الكريم
	الباب الثالث
١٦٣	علم أسباب النزول
١٦٣	مبحث فى : التعريف بعلم أسباب النزول، وفوائد معرفته
١٦٦	مبحث فى : طرق معرفة أسباب النزول، ومصادره، وصيغه
١٦٦	مبحث فى : تعارض الروايات فى سبب النزول

الباب الرابع

١٧٥	علم معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل
١٧٦	عرض الروايات الدالة على أول ما نزل
١٨٠	مبحث في : ما نزل من القرآن أولاً
١٨٢	مبحث في : آخر ما نزل من القرآن الكريم

الباب الخامس

١٩١	علم معرفة المكي والمدني
١٩٢	مبحث في : فائدة معرفة المكي والمدني
١٩٣	مبحث في : طريقة معرفة المكي والمدني
١٩٥	أولاً : الفرق بين المكي والمدني
١٩٦	ثانياً : ضوابط ومميزات المكي والمدني
١٩٨	مبحث في : حصر المكي والمدني وكلها (مائة وأربع عشرة سورة)

الباب السادس

٢٠٥	علم النسخ والمنسوخ
٢٠٥	تمهيد : تعريف النسخ
٢٠٧	مبحث : فيما يقع فيه النسخ، وأهميته، وطرق معرفته
٢٠٧	أهمية النسخ
٢٠٧	طرق النسخ
٢٠٨	مبحث في : أقسام النسخ
	مبحث في : أوجه النسخ في القرآن الكريم، والحكمة من وقوعه، والتعرف على
٢٠٩	بعض المصطلحات
٢١١	مطلب في : الحكمة من وقوع النسخ

٢١٢		مطلب في : التفريق بين بعض المصطلحات
٢١٦		مبحث في : قضية النسخ بين الإغراق والغلو
٢٢١		مبحث في : النسخ إلى بدل وإلى غير بدل
الباب السابع		
٢٢٥		علم القراءات
٢٢٥		مبحث في : أنواع القراءات
٢٣٠		مطلب في : حكم هذه القراءات وضوابطها
٢٣٠		مبحث في : أهم ضوابط القراءة الصحيحة
٢٣٢		مطلب في : أهم الكتب المؤلفة في علم القراءات
٢٣٥		الخاتمة والنتائج
٢٣٩		المصادر والمراجع
٢٤٣		فهرس الموضوعات